PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY DUPL
32101 029592191

Princeton University Library

This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

احمد زكي ابو شادي
A. Z. Abushady

مجلة القضاء الشرعي

شرعية علمية أدبية

تظهر غرة كل شهر عربي

قررت وزارة الحقانية الاشتراك فيها لجميع المحاكم الشرعية

ترسل المكاتبات باسم

محمد ابراهيم الجزيري

الادارة

١٧ بشارع أحمد باشا يكن بالمغربلين بالقاهرة

تليفون : رقم ٥١٨٧ بستان

بدل الاشتراك فى مصر والسودان

٦٠	قرشا عن سنة واحدة	وللطلبة	٣٠
١٠٠	قرش « سنتين	«	٥٠
١٥٠	قرشا « ثلاث سنين	«	٧٥
٢٠٠	قرش عن أربع سنين	«	١٠٠
١٠٠	قرش عن كل سنة خارج الدولة المصرية		

مطبعة الشباب لصاحبها محمد عبد العزيز الصدر

خلف جامع العظام بشارع عبد العزيز بالقاهرة

تفضل حضرة صاحب العزة الأستاذ الشيخ محمد الخضرى بك المفتش بوزارة المعارف فحص « مجلة القضاء الشرعى » بهذه المحاضرات النفيسة التى وضعها فى الرد على كتاب « فى الشعر الجاهلى » ، وقد نشرتها المجلة فى الأعداد الأولى لسنتها الرابعة ، وتعميما لفائدتها الجليلة ننشرها جملة فى هذا الملحق الخاص .

محاضرات

في بيان الأخطاء العلمية التاريخية التى اشتمل عليها كتاب

فى الشعر الجاهلى

لحضرة صاحب العزة الأستاذ الشيخ محمد الخضرى بك المفتش بوزارة المعارف

المحاضرة الاولى

بسم الله الرحمن الرحيم

وبعد، فان صلتى القديمة بالدكتور طه حسين جعلتنى أغتبط بتعيينه أستاذا الآداب اللغة العربية بالجامعة المصرية، راجيا أن يكون عونا على اظهار أسرار الأدب العربى ومضاعفة فوائده . وكنت أترقب آثاره ليكون منها مسرة الأب بابنه، اذا قرب للناس بعيدا أو أظهر لهم كنزا دفينا. فكان من أول ما أظهره كتابه الذى عنوانه «فى الشعر الجاهلى»، وهو مجموعة دروس ألقاها على تلاميذه . وقد قرب الى الناس غاية كتابه بمحاضرتيه اللتين ألقاهما على الجمهور، ولم يكن لى شرف استماعهما لأنى كنت على سفر . أما الكتاب فقرأته أكثر من مرة ، لأنى أحببت أن أرى ما ينتظره الأدب العربى فى هذا العهد الجديد ،من تنظيم لقواعده وتحسين لنتائجه .

رأيت فى الكتاب أغلاطا كثيرة يرجع بعضها الى طريق الاستنتاج العلمى، وبعضها الى عدم الدقة فى النقل ، وبعضها تاريخى .. فرأيت من الواجب علىّ أن أقوم بتصحيح تلك الأغلاط ، وذلك حق علينا لأبنائنا

(Arab)
PJ7541
.T33K482
1900z

الذين استمعوا الى الدكتور ، وقديما كان خدام العلم يستمع بعضهم الى بعض ما يجول بخواطرهم ، ويرون ذلك من حقوق العلم عليهم .

طلبت الى الجامعة أن تسمح لى بالقاء محاضرات فى احدى قاعاتها على التلاميذ ، أناقش فيها آراء الدكتور مناقشة علمية ، فأجابنى مدير كلية الآداب الفرنسى ، الذى يفهم الحرية العلمية ويقدرها قدرها ، بأن كلية الآداب تسر من ذلك ، لأنها تقدر الحرية الفكرية قدرها ، وستقدم الىّ أحسن قاعاتها لالقاء تلك المحاضرات ... وطلب الىّ أن أرسل اليه بملخص لها ، ففعلت . أجابنى بأنه سيعرض طلبى على مجلس كلية الآداب ويعلمنى بما يقره ... ويظهر أن عقلا آخر تغلب على مدير كلية الآداب ! وهو ذلك العقل الذى يتغنى دائما باسم الحرية ! حرية التفكير ! ولكن على شرط أن تكون سلما لهواه مؤيدة لرأيه ناصرة له على خصومه !.. فأما اذا أراد مخالفوه أن يتمتعوا بطعم تلك الحرية ، فانها تنقلب حينئذ داء دويا يجب الوقوف فى سبيله وصد تياره ! ومن أجل ذلك انقلب ذلك العقل الأوربى الى عقل آخر ، لم يكفه أن يكون مؤيدا لأعداء حرية التفكير ، بل غفل عن اللائق فلم يجبنى بنفى أو ايجاب ! !

رأيت أن أنشر على الجمهور هاته المحاضرات ، وله بعد أن يستمع حجة الطرفين أن يكون الحكم العدل .

منهج البحث

ومنهجى فى البحث أن أنظر المقدمات التى اعتمد الدكتور عليها فى نتيجة بحثه . فأبحث ما أقامه من الأدلة لاثباتها : لأن المقدمات اذا صحت مادتها ورتبت ترتيبا صحيحا ، كانت النتيجة صادقة لا محالة . أما اذا ظهر

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY DUPL>
32101 029592191

فى هذه المقدمات خلل فى مادتها أو فى ترتيبها ، فان النتيجة لاتكون صادقة بناء على هذه المقدمات . أما ما يطيل به أحيانا من غير أن يكون له أثر فى الانتاج ، فلن أعرض له ، وذلك كثير فى الكتاب ... وكذلك لا أعرض لما أسلف من خالهم خصومه ، من تهكم بعقولهم وبتفكيرهم ! لأن هـذا لا يقوى حجة ، ولا يدحض أخرى ، وليس من آداب البحث عند رجال المدرسة القديمة .

القضية التى يدور عليها البحث

ان الدكتور ألح عليه الشك ، ففكر ، وبحث ، فظهر له أن :

« الكثرة المطلقة مما نسميه شعرا جاهليا ليست من الجاهليـة فى شىء . وانما هى منتحلة مختلقة بعد ظهور الاسلام ، فهى اسلامية تمثل حياة المسلمين وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين . وأكاد لا أشك فى أن ما بقى من الشعر الجاهلى الصحيح قليل جدا ، لا يمثل شيئا ، ولا يدل على شىء . ولا ينبغى الاعتماد عليه فى استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلى ... وأن ما نقرؤه على أنه شعر امرىء القيس أو طرفة أو ابن كلثوم أو عنترة ، ليس من هؤلاء الناس فى شىء ، وانما هو انتحال الرواة ، أو اختلاق الأعراب ، أو صنعة النحاة ، أو تكلف القصاص ، أو اختراع المفسرين أو المحدثين أو المتكلمين ... وأن العصر الجاهلى القريب من الاسلام لم يضع ، وأنا نستطيع أن نتصوره واضحا قويا صحيحا ، ولكن بشرط ألا نعتمد على الشعر ، بل على القرآن من ناحية ، والتاريخ والأساطير من ناحية أخرى » .

هذه القضايا ظهرت له واضحة جلية لاشك فيها ، بعد أن شك فيها

بأيدى الجمهور ، وبحث فاهتدى اليها ، وصارت عنده علما أو ظنا يقرب من العلم .

أما ما استند اليه من المقدمات فاثنتان ، وهما اللتان نضعهما موضع البحث :

المقدمة الاولى

وهى خاصة بشعر اليمانيين من شعراء الجاهلية ، وتلخص فيما يأتى :

« ان اللغة اليمانية غير اللغة العدنانية ، وما نسب الى الشعراء اليمانيين لغته عدنانية ، فيجب أن يكون مكذوبا عليهم » .

أما الغيرية فانه لم يبين فى المقدمة مداها ، ولكنه فسرها أولا بقوله: « ان هناك خلافا قويا بين لغة حمير ولغة عدنان » ، ولما أراد البرهان على ذلك قال :

« وفى الحق أن البحث الحديث قد أثبت خلافا جوهريا بين لغتى الجنوب والشمال ... وان لديه نصوصا ونقوشا تمكن من اثبات هذا الخلاف فى اللفظ وفى قواعد النحو وفى التصريف أيضا » ! !

هذا كل البرهان الذى أقامه على اثبات الخلاف ، الذى وصفه مرة بأنه قوى ، وأخرى بأنه جوهرى !!.. وما علمنا ولا سمعنا بمنطق يكتفى بمثل هذا القول فى اقامة برهان على مقدمة يراها صاحبها أبلغ مقدماته فى الاثبات : « فى الحق أن البحث الحديث أثبت الخلاف ! وأن لديه النصوص والنقوش التى تمكن من الاثبات » ! يعنى : فيجب اذن أن نقتنع وألا نشك ! والا كنا مباعدين للمباحث الحديثة ! وحينئذ تحق علينا الكلمة أنا من أنصار القديم الذين يستحقون ما أسلف من تهكم وازدراء ! ..

واذا كان ماعند الناس من قديم لايذكر فى هدمه الا هذا،واذا كان الشك والبحث والتفكير لايوصل الا الى هذا،فليبشر القديم بطول البقاء ! !

لايحتاج وهو فى مقام الهادمين الا أن يذكر للسامعين والقارئين أن البحث الحديث أثبت ... أما كيف كان البحث ؟وكيف كان الاثبات ؟ فلا حاجة اليه !..ولا يحتاج الا أن يذكر أن لديه نصوصا ونقوشا تمكن من الاثبات ، . . أما ماهذه النصوص والنقوش ؟ وكيف تثبت التخالف متنا ونحواوتصريفا ؟ فلا حاجة اليه!..

يقول بناء على هذا الكلام المبهم:« ان المحدثين استطاعوا أن يثبتوا هذا التمايز بالأدلة التى لاتقبل شكا ولاجدالا» ، يعنى : فاما كم أن تشكوا أو تجادلوا! ولو لم أبين لكم من هذه الأدلة شيئا!بل ثقوا بالمحدثين ، استغفر الله ! بل ثقوا بمجرد الاخبار عن المحدثين أنهم أثبتوا !! أما اذا علمتم أن القرآن والتوراة يحدثانكم عن ابراهيم واسمعيل ، فاقطعوا بأن ورود هذين الاسمين فيهما لايكفى لاثبات وجودهما التاريخى .

يقول : ان حديث بناء الكعبة على يدى ابراهيم واسمعيل حديث وضعته اليهود وقبلته قريش واستغله الاسلام !.. أما اليهود فوضعوه بعد مصالحتهم العرب الذين أغار اليهود عليهم ، ليكون وسيلة للتقرب بين الفريقين بظهور أنهما أبناء عم . وأما قريش فقبلته لأنها احتاجت فى نهضتها الى أصل تاريخى من التواريخ الماجدة التى تحدث عنها الأساطير . وأما الاسلام فاستغله ليثبت الصلة الوثيقة المتينة بين الدين الجديد وبين الديانتين القديمتين،ديانة اليهود والنصارى .

ومن الغريب أن يبرهن على الجملة الأولى .وهى وضع اليهود للحديث، بقوله : « فليس يبعد» ! وعلى الجملة الثانية ، وهى قبول قريش له، بقوله : « فليس مايمنع »!وعلى الجملة الثالثة ،وهى استغلال الاسلام له ، بقوله : « فما الذى يمنع » !.. وينبى على هذه الكلمات الثلاث قوله : « أمر هذه القصة اذاً واضح » !.. نعم قد اتضح بنفى البعد فى الأولى ! وعدم المانع فى الأخريين !.. وما علمنا بمنطق فى العالم يكتفى فى اقامة البرهان على عدم صحة خبر من الأخبار بأنه لايبعد ضده أو أنه لامانع من ضده !.. لو كان مضمون الخبر مما تحيله العقول أو تستبعده ، لكان للأستاذ وجه فى شكه،لأن مخالفة الأخبار لقضايا العقول مما يقضى حتما بردها أو تأويلها... أما مسألتنا فليست كذلك ، لافى ذاتها ولافى نسبتها الى ابراهيم وولده اسمعيل ، اذ غاية ما فيها : أن رجلا من عباد الله نقل ولده مع أمه وأسكنهما ببقعة بعيدة عن بلده لغرض من الأغراض .وبنى لهما فى تلك الجهة بيتا لعبادة الله، ودعالهما ولأولادهما أن يجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وأن يرزقهم من الثمرات،ثم أصهر هذا الشاب اسمعيل بن ابراهيم الى القبيل الذين كانوا بتلك البقعة،فتزوج منهم وعاش معهم ، فكان ذلك أساسا لتكوين اللغة الاسماعيلية . وقد اشترك فى تكوينها ثلاثة ألسن: لسان الأم المصرى،ولسان الشاب العبرى ،ولسان القبيل الذين أصهر اليهم وهو الحميرى . وقد أيدت المقارنات اللغوية صدق ذلك ، فقد ظهر أن اللسان الاسماعيلى مزيج من هذه الالسن الثلاثة .

من المفهوم أن يسبق الشك الى نفس العالم اذا أظهر بحث علمى فى اللغة الاسماعيلية أو فى نفس بناء الكعبة مالا يتفق مع خبر القرآن ، بأن ظهر أن

هذه اللغة معدومة الصلة باللغات العبرية والحميرية، أو ظهر أن بناء الكعبة حديث العهد، أو أنه لاصلة بينه وبين بيوت العبادة العبرية.. لو أظهر الاستاذ لنا شيئا من ذلك لكان لنا منه موقف آخره، ولعذرناه فى حيرته وتردده! أما وهو يتكلف الشك، لأن غيره قد سبقه بهذا الشك، فانا لانرى لكلامه قيمة تاريخية علمية! ونضطر أن نحكم عليه بأنه يتعمد الهدم بلا مبرر من العلم! وأن نصارحه القول بأن الدين فى هذا الموضوع لم يصطدم بالعلم، وانما اصطدم بالهوى، والهوى لايلبث أن ينكسر عند أول صدمة!

على أن الاستاذ لو التفت قليلا الى السبب الذى تخيله لوضع اليهود الحديث، لعلم أنه واه لايصلح أساسا! لانه اذا صح انما يثبت القرابة بين الاسماعيليين وبنيهم من العدنانيين وبين اليهود.. وأما العرب الذين أغار عليهم اليهود ثم صالحوهم فهم عرب يثرب، وهؤلاء من القحطانيين لانهم من غسان احدى بطون الأزد.. فالحديث لايؤدى الى المطلوب الذى تخيله الاستاذ ومن سبقه!

بهذا وضح أنه ليس للاستاذ دليل أو شبهة فى رده خبرا ذكره القرآن وتناقلته العرب خلفا عن سلف.

بعد هذا كله، نستطيع أن نسلم أنه كان هناك خلاف بين لغة حمير وعدنان، وان كنا لانستطيع بيان مقدار هذا الخلاف: أهو فى متن اللغة أم فى نحوها وصرفها؟.. مع هذا التسليم نقول له: ان هذا لايفيدك شيئا! لأن القحطانيين الذين وصل الينا شعرهم، انما هم من أبناء سبأ بن يعرب ثم من كهلان، تركوا بلادهم قبل الهجرة بأكثر من قرنين بعد سيل العرم

ونزحوا الى الشمال: منهم اللخميون ملوك الحيرة ، والغسانيون ملوك الشام، وسكان يثرب وغيرهم من قبائل الأزد ،وممن هاجر بطون طيئ سكان الجبلين أجا وسلمى ،وبطون من كندة الذين ملك بنوهم على قبائل من عدنان ، وأول من ملك منهم حجر بن عمرو آكل المرار ، كان ملكا على ربيعة ثم ملك ابنه وأحفاده كثيراً من القبائل العدنانية من ربيعة ومضر ... وتخبرنا التاريخ أن الاختلاط تم بين الفريقين . أفليس هذا كافيا لأن تمتزج اللغات وتتحد الالسنة؟ وامرؤ القيس الذى دار الحديث عليه كان حفيدا لحجر بن عمرو. أما حمير التى أقامت ببلادها من ظفار وصنعاء وماجاورها ، فهى التى قال عنها أبو عمرو بن العلاء : « مالسان حمير وأقاصى اليمن لساننا ، ولا عربيتهم عربيتنا». ومن الغريب أن الاستاذ لما أراد الاحتجاج بعبارة أبى عمرو أخطأ مرتين : الاولى أنه حذف منها قوله « وأقاصى اليمن » ،الثانية أنه لم يذكر العبارة السابقة عليها فى بيان مذهب أبى عمرو بن العلاء فى أنساب العرب ، وهو خبر يونس عن أبى عمرو قال :« العرب كلها ولد اسمعيل ، الاحمير وبقاياجرهم». وحمير يقابلها فى قحطان سبأ ، كما يقال فى عدنان ربيعة ومضر ، وبنو سبأ هم الذين نزحوا الى الشمال بعد سيل العرم ، على ماعليه أكثر المؤرخين، وهم من ولد اسمعيل ، على ماعليه أبو عمرو بن العلاء، وقد كان هذا رأيا معروفا عند النسابين ، وقد ذكره أبو الفرج صاحب الأغانى مفصلا فى ترجمة خزيمة بن نهد القضاعى : (انظر الجزء الحادى عشر ص ١٦٠ طبعة أميرية) .

وأكثر الشعر اليمانى انما هو لشعراء من سبأ كانوا بالشمال ، اما

بالمدينة واما بالعراق واما بالصحراء الشمالية واما بالشام، أو لعرب عدنانيين على رأى أبى عمرو بن العلاء. فالاستاذ يرى بعد ذلك أنه اذا سلمت مقدمته بأنه كان هناك خلاف بين لغة حمير ولغة عدنان، فان ذلك لاينتج شيئا، لان العربية القديمة عربية حمير لم يؤثر شئ من شعرها، وابن سلام فى الطبقات انما ساق عبارة أبى عمرو فى هذا الصدد وهى نفى أن يكون هناك شعر تصح نسبته الى عاد وثمود... وظهر من ذلك أن الوهم تطرق اليه من أنه ذكر قضية فيها عموم، وهى التخالف بين لغتى قحطان وعدنان، وأقام عليها ماينتج خاصا، وهو الخلاف بين حمير وعدنان، وحمير أخص من قحطان!

المقدمة الثانية

ان العدنانيين أنفسهم لم يكونوا متحدى اللغة ولا متفقى اللهجة قبل أن يظهر الاسلام، فلكل قبيلة من هذه القبائل لغتها ولهجتها ومذهبها فى الكلام. ومن الضرورى أن يظهر اختلاف اللغات وتباين اللهجات فى شعر هذه القبائل، ولما لم نر شيئا من ذلك لزم اما عدم التخالف واما الاعتراف بأن هذا الشعر لم يصدر عن هذه القبائل وانما حمل عليها بعد الاسلام... وهو يميل الى الاحتمال الثانى، ولاندرى لم لم يقطع به، اذ كان القطع نتيجة لازمة لمقدمته! لانه اذا لزم من شئ أحد أمرين وبطل أحدهما لزم الثانى حتما.

أراد أن يبرهن لهذه المقدمة فكان البرهان قوله: «فالرواة مجمعون على أن قبائل عدنان لم تكن متحدة اللغة ولامتفقة اللهجة قبل أن يظهر الاسلام، وكان من المعقول أن تختلف لغة العرب العدنانية وتتباين

لهجتهم قبل ظهور الاسلام ، ولا سيما اذا صحت النظرية التى أشرنا اليها . وهى نظرية العزلة العربية ، وثبت أن العرب كانوا متقاطعين متنابذين ، وأنه لم يكن بينهم من أسباب المواصلات المادية والمعنوية ما يمكن من توحيد اللهجات » .

قبل أن نناقش هذا البرهان نبين للقراء ما الفرق بين اللغة واللهجة حتى تتضح سبيل الكلام :

أما اللغة فيراد بها الالفاظ التى تدل على المعانى من أسماء وأفعال وحروف ، والنحو وهو طريق تأليف الكلمات واعرابها للدلالة على المطلوب ، والصرف وهو مايصيب حروف الكلمات من تغيير بابدال أو حذف ... هذه هى اللغة .

وأما اللهجة فهى طريق أداء الكلمة الى السامع ، مثل امالة الفتحة والالف أو تفخيمها ، ومثل تسهيل الهمزة أو تحقيقها .

ولا تلازم بين اختلاف اللغات واختلاف اللهجات ، فقد تكون اللغة متحدة واللهجات مختلفة ، وقد ذكر الأستاذ فى هذه المقدمة مايشمل الأمرين جميعا ، وان كان قد عنونها بقوله : « الشعر الجاهلى واللهجات » .

لما أراد البرهان اكتفى بقوله : « فالرواة مجمعون على أن قبائل عدنان لم تكن متحدة اللغة ولا متفقة اللهجة قبل الاسلام » ! وقد اعتاد أن يفجأ الناس بجمل ضخمة اذا فتشت لم توجد شيئاً ! . . من هم هؤلاء الرواة ؟ وما نصوصهم ؟ لنرى ماهذا التخالف الذى أجمعوا عليه فى لغة العرب العدنانية قبل الاسلام : أهو فى الكلمات ؟ أم فى النحو والصرف ؟

أم فى اللهجات وحدها ؟.. كل ذلك يغفل فى برهان مقدمة يراد بها الهدم ! وليس هكذا يدلى بالعلم الى الجمهور، ولا بمثل هذا يهدم ماعنده .

من الغريب أن يعضد هذا البرهان اليهم بنظرية العزلة التى كان عليها العرب قبل الاسلام ، وهو نفسه الذى قال عن هذه العزلة قبل ذلك بصفحات ... ص ٢١ : « فهم يعتقدون أن العرب كانوا قبل الاسلام أمة معتزلة تعيش فى صحرائها ، لاتعرف العالم الخارجى ولا يعرفها العالم الخارجى ، وهم يبنون على هذا قضايا ونظريات : فهم يقولون ان الشعر الجاهلى لم يتأثر بهذه المؤثرات الخارجية التى أثرت فى الشعر الاسلامى ، لم يتأثر بحضارة الفرس والروم ، وأنى له ذلك ؟ لقد كان يقال فى صحراء لاصلة بينها وبين الأمم المتحضرة ! القرآن يحدثنا بأن العرب كانوا على اتصال بمن حولهم من الأمم ، بل كانوا على اتصال قوى قسمهم شيعا وأحزابا »....فيرى الناس أنه رد حديث العزلة وهزئ به حينما بدا له أن يبين خطأ من يدرسون أدب اللغة ويعتمدون على الشعر الجاهلى فى درس الحياة العربية قبل الاسلام ، ثم اعتمد عليه وقوى برهانه به لما أراد أن يثبت معقولية التخالف بين اللغات العدنانية !! ولا أدرى بم أسمى هذا النوع من الحديث؟

بقى أن نسأله: من من الرواة أثبت هذه العزلة العربية قبل الاسلام ؟ والتاريخ والشعر يدلاننا على أن فريقا عظيما من العرب كانوا متصلين بالفرس اتصالا وثيقا ، وكان منهم ملوك يدينون بالطاعة لملوك الفرس ، وهم اللخميون ملوك الحيرة، ومن هؤلاء شعراء ، وأن فريقا عظيما كانوا متصلين بالروم اتصالا وثيقا، وكان منهم ملوك يدينون بالطاعة لملوك

الروم، وهم الغسانيون ملوك الشام، ومن هؤلاء شعراء، وكانت ربيعة كلها تسكن على حدود العراق وتتصل بالفرس بواسطة المناذرة ملوك الحيرة، ولهم شعراء مشهورون، وقريش كلها كانت لها رحلتا الشتاء والصيف الى اليمن والشام. ولم يبق بعيدا عن هذه الصلات الا شعراء قيس من أهل نجد، على أنهم كثيرا ما كانوا يتصلون بملوك الشام والحيرة... فكيف يكون حديث هذه العزلة، التى استبعدها مرة واتخذ القول بها دليلا على خطأ من يلتمسون تاريخ العرب فى الشعر الجاهلى، واعتضد بها مرة على وجوب أن يكون هناك خلاف بين العدنانيين فى اللغة واللجهة ؟!

يتوسع الأستاذ فى ذكر هذه العزلة بنفى أن يكون هناك مواصلات مادية أو معنوية، وهذا خطأ تاريخى عظيم: أما المواصلات المعنوية، فقد كانت صلة المصاهرة شائعة بين كثير من القبائل العربية، يصهر القرشى الى القيسى، والقيسى الى الربعى، والتميمى والعدنانى الى القحطانى، وقد كان زهير بن جذيمة العبسى سيد عبس مصهرا الى النعمان بن المنذر ملك الحيرة، زوجه ابنته المتجردة. وأحاديث الاصهار بين القبائل المختلفة ليست مما يتكلف الباحث ذكرها. فهى فى التاريخ كثيرة وذكرها الشعراء وذكروا آثارها فى شعرهم... وكما كان هذا الاصهار كثيرا كانت صلات الحلف بين القبائل المختلفة، كما كان بين أسد وغطفان، وبين قريش وثقيف، يقف المتحالفون جنبا لجنب حينما يشعرون بعدو يهاجمهم، كما وقفت عبس وعامر ضد بطون تميم،.. كل ذلك يتحدث عنه التاريخ. وأما المواصلات المادية، فكذلك

كانت فى أسواقهم وفى مجامعهم وفى بيوت عبادتهم ... فكيف يزعم زاعم بعد ذلك أنه لم تكن بين العرب مواصلات معنوية ولا مادية ؟ !

ظن بعد ذلك أن البرهان قام والمقدمة صحت، فقال : « فاذا صح هذا كان من المعقول جدا أن تكون لكل قبيلة من القبائل العدنانية لغتها ولهجتها ومذهبها في الكلام ، وأن يظهر اختلاف اللغات وتباين اللهجات فى شعر هذه القبائل الذى قيل قبل أن يفرض القرآن على العرب لغة واحدة ولهجات متقاربة ».

لاندرى كيف يظهر فى الشعر تباين اللهجات ؟ فان اللهجة كما قدمنا انما هى مايرجع الى الأداء، والشئ الواحد قد يؤدى بلهجات مختلفة وهوهو فى حركاته وسكناته ، كما اختلف الأداء فى القرآن نفسه والقرآن هوهو . قد أحادث مغربيا وقدينشدنى شعرا فلا أكاد أفهمه ، لأن له لهجة خاصة ، ولكنه لو كتب الىّ ماتحدث به أوأنشده لم أجد أدنى صعوبة فى فهمه ، ولوجدته مماثلا للغتى لايمتاز عنها لافى كلماته ولانحوه ولاصرفه . فقوله بعد ذلك : « تستطيع أن تقرأ هذه القصائد السبع بدون أن تشعر بشئ يشبه أن يكون اختلافا فى اللهجة » ، كلام بعيد عن التحقيق العلمى ، بل هو ليس بمفهوم ، اذ كيف أشعر باختلاف اللهجة وأنا أقرأ أشعارهم ؟ انما أشعر بها اذا أنشدها قائلوها واستمعتها منهم ، فانى حينئذ أشعر بما تتخالف فيه قيس وربيعة وتميم من اللهجات .

ولا أترك فى هذه اللحظة أن أنبه الى خطأ وقع فيه الدكتور ، فانه نسب زهيرا صاحب « أم أوفى » الى قيس وضمه الى عنترة ولبيد ، وهذا

غير صحيح، فان زهيرا من خندف لا من قيس، اذ أنه من مزينة وهى أم عثمان بن عمرو بن أد بن طابخة ابن مدركة بن الياس بن مضر، والياس عم قيس عيلان بن مضر، والذى من قيس هو أسعد بن الغرير خال زهير وهو من عبد الله بن غطفان، وقد ذكر ذلك صاحب الأغانى مفصلا فى ترجمة زهير بن أبى سلمى، ولمكانه من أخواله يقول ابن سلام: « وهم يعدون زهير بن أبى سلمى من عبد الله بن غطفان » ص ١١، وقد ذكر نسبه لأبيه فى ص ١٥ طبعة ليدن.

يقول بعد اللهجة: « أو تباعدا فى اللغة أو تباينا فى مذهب الكلام »، ومن أغرب ماعقب ذلك به قوله « البحر العروضى هوهو وقواعد القافية هى هى »! ولا ندرى ما الرابطة بين اختلاف اللغة اذا ثبت وبين اختلاف بحور الشعر وقوافيه؟ أيريد أن يقول ان اختلاف القبائل فى الكلمات التى تؤدى بها المعانى يستلزم حتما أن تختلف بحور الشعر وقوافيه؟ أم يريد أن يضم الى المقدمة السابقة زيادة، وهى وجوب الاختلاف فى بحور الشعر وقوافيه بين القبائل كما اختلفوا فى اللهجة؟ واذا كان ذلك حتما فكيف يفسر اتفاق العرب على هذه البحور وهذه القوافى حين مجئ الاسلام وبعده؟ انه فسر اتفاق اللغة واللهجة بقوله: « ان القرآن فرض على الناس لغة قريش ولهجة قريش فاتفقوا فيها بعد الاسلام »، فهل يريد أن يقول أيضا ان الاسلام فرض على الناس بحور قريش وقوافى قريش بعد الاسلام حتى اتفقوا فيها كما اتفقوا فى اللغة متنا ولهجة؟ لعمرى ان هذا لمن المشكل الذى لا يمكن تفسيره ولا تأويله!

يقول بعد ذلك : « لما لم يؤثر اختلاف القبائل فى شعر الشعراء ، فنحن بين اثنتين: اما الايمان بأنه لم يكن هناك اختلاف ، واما الاعتراف بأن هذا الشعر لم يصدر عن هذه القبائل » ، ثم قال: « ونحن الى الثانية أميل منا الى الأولى » ، ولماذا ؟ أجاب على ذلك بقوله : « فالبرهان القاطع على أن اختلاف اللغة واللهجة كان حقيقة واقعة بالقياس الى قحطان وعدنان »!.. ألا يرى القارئ كيف يكون الهروب مما فيه البحث لاختداع القارئين ؟ انه يتكلم فى هذه المقدمة عن الخلاف بين قبائل عدنان ، اذ أنه قد أنهى فى المقدمة الأولى مايتعلق بالخلاف بين عدنان وقحطان ، وانتقل وانتقلنا معه الى المقدمة الثانية، ولكنه شعر بأنه ليس فى يده دليل أو شبه دليل على مقدمته الثانية، وعنده على مقدمته الأولى ما أسماه الدليل القاطع ، وهو أبحاث المحدثين والنصوص والنقوش التى يزعم، فرآها أيضا تكفى للبرهان على الخلاف بين قبائل عدنان كما تكفى للتخالف بين عدنان وقحطان ، ولم لا ؟ أليست أبحاث المحدثين ؟ ألا تعتبر برهانا على كل قضية يدور عليها البحث ؟

يقول بعد ذلك : « ان القرآن تلى بلغة واحدة ولهجة واحدة هى لغة قريش ولهجتها ، لم يكد يتناوله القراء من القبائل المختلفة حتى كثرت قراءاته وتعددت اللهجات فيه وتباينت تباينا كثيرا » ، لايشير الى اختلافهم فى حركات الاعراب أو حركات البنية، لأن تلك مسألة أنذرنا بأنها معضلة ، وانما يشير الى اختلاف اللهجات ، .. وقال : « ان هذا النوع من اختلاف اللهجات له أثره الطبيعى فى الشعر ، فى أوزانه وتقاطيعه وبحوره وقوافيه بوجه عام » .

أما قوله : « ان القرآن تلى بلغة واحدة ولهجة واحدة» فهذا مما يطبق على نفيه قراء القرآن ورواته ، فان النبى صلى الله عليه وسلم قرأ على الناس القرآن ورخص لأصحاب اللهجات المختلفة من سائر العرب أن يقرؤوه بلهجاتهم وبلغاتهم ، وكان هو يقرؤه أيضا بتلك اللهجات واللغات المختلفة التى سنبين مدى اختلافها ، وانما فعل ذلك تيسيرا على الناس كما قال الله تعالى : « ولقد يسرنا القرآن للذكر » . ولم يشأ أن يعنتهم ويلزمهم لهجة واحدة أو طريقة من النحو واحدة . وروى أنه قال فى ذلك التوسيع : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » .

انما يريد الأستاذ بقوله « تلى بلغة واحدة » أن يبنى عليه ما أنذر منذ الآن بأنه معضل ، ولكنا نحن نبشره من جهتنا بأن هذا الاعضال انما جاء مما تخيل هو ، فانه اخترع القضية اختراعا ، وهو الذى يريد أن يتخذ منها مايعضل .

وانا نكرر هنا ما قدمنا من أنا لاندرى كيف يكون اختلاف اللهجات مؤثرا فى الشعر ، فى أوزانه وتقاطيعه وبحوره وقوافيه بوجه عام ؟ حقا أنا لا أفهم مثل هذا ! لا أفهم تأثير الامالة والتفخيم فى بحر الشعر وقافيته ، فان مفخم الألف ينشد « قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل » بألف مفخمة ، كما ينشدها المميل بألف ممالة ، فلا يتغير فى البيت حركة ولا سكون ، وهما اللذان تبنى عليهما تفاعيل الشعر . وكما لايتغير شئ من ذلك بالامالة والتفخيم لايتغير بالادغام والاظهار . العرب لم تغير لهجاتها فى أداء القرآن الكريم كما لم تغير لهجاتها فى أداء الشعر ، واذا كان يذهب الى نجد فيستمع من أحد النجديين انشاد « قفانبك » لسمع

عجبا ، ولو سمع قصيدة لم يكن قرأها من قبل ما استطاع أن يفهم من المنشد الا قليلا بعد قليل .

وضع بعد ذلك اعتراضا تمهيدا لقضية جديدة يريد كشفها . أما الاعتراض فقوله : « ولكن اختلاف اللهجات كان قائما بعد القرآن . وليس من شك فى أن قبائل العرب على اختلافها قد تعاطت الشعر بعد الاسلام ، ولم يظهر فيه اختلاف اللهجات ... فكما استقامت بحوره وأوزانه على هذا الاختلاف بعد الاسلام ، فليس ما يمنع من أن تكون قد استقامت عليه فى العصر الجاهلى » . أما نحن فنرد عليه هذا الاستدراك بأن قوله « لم يظهر فيه اختلاف اللهجات » خطأ ، لان اختلاف اللهجات كان ولم يزل ، ولكن لا أثر له مطلقا فى أوزان الشعر لافى الجاهلية ولا فى الاسلام . وأما هو فارتاع وقد رأى أن الشعر مستقيم واختلاف اللهجات قائم ، فكان جوابه أن قرر هذه القضية وطلب من القارئ ألا ينساها ، وهى « ان القبائل بعد الاسلام قد اتخذت للأدب لغة غير لغتها ، وتقيدت بقيود لم تكن لتتقيد بها لو كتبت أو شعرت فى لغتها الخاصة ، أى أن الاسلام قد فرض على العرب جميعا لغة واحدة وهى لغة قريش ، فليس غريبا أن تتقيد القبائل بهذه اللغة الجديدة فى شعرها ونثرها ، فى أدبها بوجه عام » .

ظاهر أن هناك تباعدا بين السؤال والجواب ، لأن السؤال يدور على اتفاقهم فى الشعر بعد الاسلام مع اختلاف اللهجات ، والجواب يتعلق باللغة لا باللهجة ، ولعله يريد بها ما يشملهما .

هذا جديد من القول ، وهو فرض الاسلام على الناس لغة خاصة

غير لغتهم ! ولا تتمكن من رد هذا القول الا بالمقارنات، واذا قارنا بين شئ من الشعر الاسلامى وشئ مما عندنا من الشعر الجاهلى لنثبت خطأ هذه القضية . شعرنا بأنا استغنا فى البرهان بموضوع النزاع ، وهذا مالا يجوز ؛ وانما نحتج على بطلان هذه القضية بشئ لا يمكن الأستاذ انكاره ولا التردد فيه ، وهو شعر هؤلاء المخضرمين الذين أدركوا العهد الجاهلى قبل أن يصدر المرسوم الاسلامى المزعوم بتغيير اللغات القديمة وفرض لغة أخرى جديدة، وما بعد صدور هذا المرسوم . نقارن بين ماقالوه فى العهدين لنرى مقدار هذه القضية من الصحة والبطلان :

ان الشعراء المخضرمين كثيرون ، ولأكثرهم شعر فى العهدين ، نذكر فى مقدمتهم كعب بن زهير المزنى ، أنشد بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم قصيدته المعروفة :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم اثرها لم يفد مكبول

قبل أن يبلغه المرسوم الاسلامى ! أو على الأقل قبل أن يتأثر به فيخلع لغته الأدبية ويستبدل بها لغة أخرى فرضها الاسلام على أدباء العرب ! نقرأ هذه القصيدة كلمة كلمة وبيتا بيتا ، فلا نجد الا شعرا عذبا وكلاما سائغا لو قورن بشعر البحترى فى عصر الدولة العباسية أو بشعر شوقى فى عهدنا الحاضر لما أحسسنا فرقا .

قد أمكننا أن نقارن بين شئ فى هذه الكلمة وشئ قيل فى معناه فى كلمة أخرى لعبدة بن الطبيب المخضرم أيضا وهى التى أولها :

هل حبل خولة بعد الهجر موصول أم أنت منها بعيد الدار مشغول

والموضوع الذى اشتركا فيه وصف الناقة ، وصفها كعب فى

عشرين بيتا ، ووصفها عبدة فى ستة عشر بيتا . وليس من الغريب أن نقول ان الشاعرين يتقاربان فى كثير من المعانى ، وفى الألفاظ التى يعبران بها عن هذه المعانى ، وفى البحر والقافية ، وهذا شاعر مزنى والآخر شاعر تميمى . ثم قارنت بين كلمة كعب وقصيدة أخرى لشاعر اسلامى وهو ذو الرمة . وهى التى أولها :

ما بال عينك منها الماء ينسكب كأنه من كلى مفرية سرب

قارنت بينهما فى الغزل ووصف الناقة ، فوجدت الوصف والخيال فيه يكادان يتفقان . وانما اخترت قصيدة كعب للمقارنة لأنها قد اتفق على روايتها الأدباء وأهل السير والمحدثون . وتكاد لاتكون محل نزاع ، وقالها صاحبها فى أول مقابلة له مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن تأثر بالاسلام ولا بمرسومه .

فاذا انتقلنا بعد كعب الى الحطيئة ، وهو قيسى من عبس وممن أدركوا العهدين ، فانا لانكاد نشعر بفرق بين ماقاله فيهما ، ولا نكاد نراه فى شعره يختلف عن الشعر الذى قاله بعده فحول الشعراء من الاسلاميين ، لا أقول فى اللهجة ، لأن اللهجة كما قلت لا أثر لها فى الشعر ، بل لانرى اختلافا لافى الكلمات ولا النحو ولا الصرف . دع هؤلاء واذكر الشعراء الذين تقارضوا شعرهم فى العهد النبوى من اليمانين سكان يثرب ، كحسان وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، ومن القرشيين سكان مكة ، كعبدالله بن الزبعرى والحرث ابن هشام ... هؤلاء روى لهم شعر كثير ، وقد رأينا الدكتور لاينكره ، فهل يقال ان هؤلاء جميعا تأثروا بالمرسوم الاسلامى . فسارعوا بأن نبذوا طريقة أسلافهم فى الشعر

والادب، وقالوا شعرهم على المذهب الجديد، حتى وصلنا مشابها لشعر شعراء الاسلام الذين ظهروا بعد هذا العصر ؟ !واذا أمكن أن يفهم ذلك فى شعر قريش لأنهم حاوروا النبى صلى الله عليه وسلم، فكيف يفهم فى شعر اليمانين سكان المدينة الذين فيهم من قال الشعر قبل أن يعرف رسول الله كحسان بن ثابت ؟ وفى شعراء قيس الذين كانوا يعادون النبى ويكرهون دينه ؟ وكيف يفهم فى شعراء ربيعة الذين يمثلهم أعشى قيس، وقد اهتم بأن يفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال داليته المشهورة : « ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا »؟

رأينا الاستاذ لاينكر أن هناك شعرا جاهليا بقى، وان يكن أقلية مطلقة، أفلم يكن من الواجب عليه،اذا أراد تيسير سبيل البحث،أن يواجه الناس بشئ من هذا الشعر الذى يظن أنه بقى ويقارن بينه وبين شئ من الشعر الاسلامى « بعد صدور المرسوم » ! ويبين للناس الفرق بين اللغتين ببيان القيود التى حدثت وأمر الناس باتباعها فى أدبهم ؟ لا ! انه لم يفعل ذلك ! . .

لاأعرض بعد ذلك لما فزع اليه من المقايسة بين اللغة العربية وغيرها من اللغات، ولا أشتغل بحديث الدوريين واليونيين، لأنى لم أدرسه، ولأن التاريخ الأدبى لاينال بالمقايسات بين الأمم المختلفة ! . .

أما ماضربه من المثل بأنفسنا واختلاف المتكلمين منا من أهل الجنوب والشمال،فانما هو يؤيد نظريتنا،لأن الأمر لايعدو اختلاف لهجة، واختلاف اللهجات كما قلنا له أثره فى التفاهم عند المحادثة، أما اذا كتب أحد المتخالفين مايريد فان كلامه يكون مفهوما للآخر.

أراد أن يتوسط فيقول : « ان لغة قريش سادت قبل الاسلام سيادة محدودة لاتتجاوز الحجاز، فلما جاء الاسلام عمت السيادة » .. ان الموضوع ليس سيادة فحسب ، ولكن سيادة معها ترك القديم واستبدال ماسواه به ، يعنى أن الميمى والقيسى واليمانى كلٌّ غير لغته ولهجته واستبدل بهما لغة قريش ولهجتها !

بينما يزعم أن الاسلام لم يتمكن من تغيير اللهجات فى قراءة القرآن نفسه ، اذ قال فى ص ٣٤ : « فان العرب لم تستطع أن تغير حناجرها وألسنتها وشفاهها لتتلو القرآن كما كان يتلوه النبى وعشيرته من قريش ، فقرأته كما كانت تتكلم ، فأمالت حيث لم تكن تميل قريش، ومدت حيث لم تكن تمد، وقصرت حيث لم تكن تقصر ، وسكنت حيث لم تكن تسكن ، وأدغمت أو أخفت حيث لم تكن تدغم ولا تخفى ولا تثقل » .. اذا به يزعم هنا أن الاسلام أمكنه أن يغير اللهجات فى الأدب والشعر ، كأن الاسلام ماجاء الا ليغير الادب والشعر فبذل فيهما جهده وأصدر مرسومه فارضا على الناس التغيير ، ولم يعن أو لم يتمكن بأن يصدر هذا المرسوم بالنسبة للقرآن ! .. ماهذا كله ؟ ... ظن الدكتور أنه بمثل هذا استطاع أن يفسر اتفاق المعاصرين للنبى صلى الله عليه وسلم من أهل الحجاز فى اللغة واللهجة ، ولكنه لايستطيع أن يفسره فى شعر الذين لم يعاصروه أو لم يحاوروه! ان المعاصرين له لم يكونوا من أهل الحجاز فقط ، ولكنهم كانوا من الحجاز ونجد وتهامة الشرقية ، وفيهم من لم يحاوره أبدا كالاعشى ، وشعرهم مما لايتناوله انكار الاستاذ ، وهو موافق لغيره متحد معه فى اللغة ، وهو كثير معروف .

وهنا أعود قليلا الى مسألة المقارنات، فقد ذكرت أن الاستاذ قد سلم فى الكتاب الثالث بشئ من الشعر الجاهلى، وهو قصيدتان لعلقمة الفحل، وقد كنا أردنا ارجاء حديثهما الى المحاضرة الثانية، ولكننا نعرض لهما الآن قليلا، لنقول ان القصيدة الثانية التى سلم صحتها بدون تحفظ، لاتفترق كثيرا عن شعر هؤلاء المعاصرين وغيرهم من شعراء الجاهليين وممن هم بعد الاسلام، وسأتلو عليكم أبياتا منها :

طحا بك قلب فى الحسان طروب ... بعيد الشباب عصر حان مشيب
تكلفنى ليلى وقد شط وليها ... وعادت عواد بيننا وخطوب
منعمة مايستطاع حديثها ... على بابها من أن تزار رقيب
اذا غاب عنها البعل لم تفش سره ... وترضى اياب البعل حين يؤوب

والرجل لاشك فى جاهليته، سواء قلنا انه عاصر امرأ القيس كما يقول الناس، أو انه مات قريبا من ظهور الاسلام كما يرى الدكتور.

قد كفانا مؤنة الاكثار بقوله : « ان هـذه المسألة الفنية تحتاج الى تفصيل وتحقيق أوسع وأشمل مما يسع المقام » ! وانى لا أعـلم مسألة تشابه هذه المسألة فى خطرها، لأنها تتعلق بجزء من الأدب العربى كان الجمهور يراه من أكبر أجزائه بل من أقدسها ويراد نفيه، فلا يحسن أن يضن عليه بالتفصيل والتحقيق.

انتقل الى مسألة أخرى وهى الشعر الذى يروى للاستشهاد به على القرآن الكريم. وهنا نقول له : ليس اهتمام العلماء بالشـعر مقصورا على الاستشهاد به فى التفسير، وما علينا الا الرجوع الى معجم لسان العرب، وهو أجمع ماوصل الينا من نتائج الرواية العربية. ان هذا الكتاب مؤلف مما يقرب من عشرة آلاف صفحة، فى كل صفحة البيتان والثلاثة، وربمـا

تصل الى الخمسة والستة، فاذا حسبنا الأقل وهو بيتان، كان فى الكتاب نحو عشرين ألف بيت مما يستشهد به على الكلمات اللغوية واستعمال العرب لها فى شعرهم وآدابهم، ولنفرض أن نصفها للشعراء الاسلاميين الذين يحتج بعربيتهم، فيبقى عشرة آلاف بيت للجاهليين من الشعراء، يستشهد بها على كلمات عربية لم يرد كثير منها فى القرآن. فاذا أمكن أن يقال: ان الشعر المستشهد به على كلمات القرآن انتحله المفسرون لذلك، فما القول فى هذا الشعر كله وهو الذى أخذت منه اللغة؟ أينكره أيضا، فتبقى اللغة لادليل على نسبتها لواضعيها والذين استعملوها لأول مرة؟ أم يعفيها من الشك ويضعها فى الاقلية التى بقيت؟ واذا رضى هذا الشعر وأعفاه، فما الذى يجعله يرجح هذا دون ذاك؟.. الدكتور يحتج فى نفى الشعر المستشهد به على القرآن بقوله: «أليس من الممكن أن تكون قصة ابن عباس ونافع بن الازرق قد وضعت فى تكلف وتصنع؟»، ثم قال: «بل أليس ممن الممكن أن تكون قصة ابن عباس هذه قد وضعت فى سذاجة وسهولة ويسر، لالشئ الا لهذا الغرض التعليمى اليسير.»؟ ومع أنى لم أفهم الفرق بين المضرب عنه والمضرب به، أجيبه بقولى: بلى! هذا ممكن، كما يمكن أن يكون الخبر صحيحا أنه اجتمع ابن عباس مع نافع ابن الازرق فى مجلس واحد أو مجالس متعددة فسأله نافع هذه الأسئلة كلها فأجابه بما هو مسطور كله، كما يمكن أن يكون بعضه صحيحا وبعضه غير صحيح، كل ذلك ممكن، ولكن الذى يجب أن تجيب عنه، هو: بم ترجح عندك أن الخبر مكذوب كله؟ أهو غير معقول؟ أم هو مخالف لطبائع التعليم؟.. وتأكد ياسيدى أنه لن يغضب منك أحد اذا أقمت

لهم البرهان المعقول على ماتدعى ، أما الاقتصار على : لايبعد ،وأليس من الممكن ، وما شابه ذلك ، فتأكد أنه لايهدم شيئا مما بأيدى الجمهور .

لايكفيك أن تقول : أنا لا أريد أن أطيل ،ولا أتعمق فى اثبات هذا ! لأنك فى مقام الهادمين لشئ توارثه الناس وارتضوه ، ظانين صحته ، ولم يحركهم الى الشك فيه داعية من استحالة أو بعد .

انى أحب أن أسير مع الدكتور الى النهاية فى البحث فأقول له: انى أسلم لك مقدمتيك ، وهما أن القبائل من عدنان وقحطان (كلها لاحمير فقط) لم تكن متحدة اللغة ، ولم تكن العدنانية أيضا يتفق بعضها مع بعض فى ذلك ، وأمنع ألا يكون هذا الخلاف قد ظهر فى شعرهم الجاهلى الذى روى لنا ، بل قد ظهر .

قدمنا أن اللغة متن ونحو وصرف :فأما متن اللغة فقد رأينا لهم فى المعنى الواحد كلمات كثيرة تدل عليه مما سماه الفنيون ترادفا ، وقد رأينا شاعرا عربيا يستعمل الكلمة فى المعنى ويستعمل شاعر آخر من قبيلة أخرى كلمة ثانية فى المعنى نفسه ، ولما نقل العلماء اللغة لم يعنوا جد العناية باضافة كل كلمة الى قبيلتها ، فتكون عندنا جيش من المترادفات ، ولا نظن أن هناك سببا لكثرتها الا هذا ، لانه من البعيد أن يضع الواضع الواحد كلمتين اثنتين لمعنى واحد فضلا عن هذه الكلمات الكثيرة .وانما قلنا جد العناية لأنا رأينا شيئا من ذلك فيما كتب علماء اللغة فى الصدر الأول ، ويمكن الرجوع فى ذلك الى كتاب المزهر للسيوطى فى الجزء الاول من ص ١٢١ الى ص ١٢٩ ، ففيه نقل كثير عن العلماء الأولين فى هذا الموضوع . ولانعلم ان المرسوم الاسلامى تناول

النهى عن استعمال غير الكلمة التى تكلمت بها قريش، ورسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه كان يكلم القبائل النائية عنه بألسنتها، قال القاضى عياض فى الشفاء: (وليس كلامه مع قريش والانصار وأهل الحجاز ونجد ككلامه مع ذى المشعار الهمدانى وطهفة النهدى وقطن بن حارثة العليمى ووائل بن حجر الكندى وغيرهم من أقيال حضر موت وملوك اليمن، وانظر فى كتابه الى همدان: « ان لكم فيراعها ووِهاطها وعَزازها، تأكلون علافها وترعون عَفاءها، لنا من دفئهم وِحرامهم ماسلموا بالميثاق والأمانة، ولهم من الصدقة النِّلب والناب والفصيل والفارض الداجن والكبش الحورى، وعليهم فيها الصالغ والقارح ») ثم قال: (لما كان كلام هؤلاء على هذا الحد، وبلاغتهم على هذا النمط، وأكثر استعمالهم هذه الالفاظ، استعملها معهم ليبين للناس مانزل اليهم وليحدث الناس بما يعلمون). وروى أنه استعمل فى التعريف أم بدل أل فقال: « ليس من امبر امصيام فى امسفر »، .. فالنبى صلى الله عليه وسلم لم يرفض استعمال الألفاظ غير القرشية، فضلا عن أن يفرض على الناس استعمال القرشى منها.

نرى فى كثير من الشعر الجاهلى ألفاظا غريبة كان العلماء أنفسهم يحتاجون الى أعراب البوادى فى فهم معناها، ومن هذه الكلمات مابقى استعماله على ألسن الشعراء الاسلاميين بعد صدور المرسوم، كما نجد ذلك فى شعر العجاج وابنه رؤبة وغيرهما، والزمن نفسه هو الذى قضى على بعض هذه الكلمات فأهمل استعمالها لعدم حاجة المدنيات المتجددة اليها.

نرى هذا الخلاف الكثير فى عيون الأفعال الثلاثية بين الضم

والكسر والفتح ، فلا نرى له سببا الا أن كل وجه لغة قوم من العرب ، كما يقولون ان طيئا تفتح عين الفعل الماضى الناقص دائما فيقولون فى بقى بقَى ، وقد بقيت هذه اللغة الى الآن فى استعمالنا .

وأما النحو فكذلك كان من العرب من يرفع الكلمة ، ومنهم من ينصبها ، ومنهم من يبنى على السكون ، ومنهم من يفتح أو يضم ، وكذلك فى التصريف ، ومن تبحر فى كتب النحو رأى من ذلك شيئا كثيرا .

ومع تسليمنا هذا نقول ان أثره بقى فيما روى الينا من الشعر العربى الجاهلى ، وهذا هو أثره الطبيعى ، أما أثره فى أوزان الشعر وقوافيه فلا وجود له الا فى التخيل وليس أثرا طبيعيا .

الذى يقول :

بنى غدانة ماان أنتمو ذهب ولا صريف ولكن أنتم الخزف

فينطق بكلمة ذهب مرفوعة كما هو الاكثر ، أو منصوبة كما هو الأقل ، لايغير وزن الشعر بهذا ولا قافيته ... والذى يقول :

وقالوا تعرفها القبائل من منى وما كل من وافى منى أنا عارف

لايتغير شعره اذا لفظ بكل مرفوعة كما هو الفصيح ، أو منصوبة كما هو القليل ... الى غير ذلك مما لا أود الاطالة به .

اذا تبين أن المقدمات التى ذكرها الدكتور لاتنتج المطلوب مما يريد أن يجعله عقيدة ، حيث يقول فى ختام كلامه : « أليس هذا الشعر الجاهلى الذى ثبت أنه لايمثل حياة العرب الجاهليين ولا عقليتهم ولا دياناتهم ولا حضاراتهم ، بل لايمثل لغتهم ، أليس هذا الشعر قد وضع وضعا وحمل على أصحابه حملا بعد الاسلام ؟ أما أنا فلا أكاد أشك الآن فى هذا » ! !

فانا نقول له : قد بينا أن الشك والبحث لم يصلا بالناس الى برهان يزحزحهم عما فى أيديهم ! ومن الغريب أنك تلوم أنصار القديم على أنهم لايشكون فيما بأيديهم من الشعر الجاهلى ، وقد توارثوه ورواه علماؤهم ! أما أنت فتنفى عن نفسك الشك معتمدا على : لايبعد ، وأليس من الممكن ، وقلما يتجان شيئا !!

ننتقل بعد ذلك الى ماانتقل اليه الدكتور من بيان أسباب الانتحال ، ثم البحث فى الشعراء الذين جعلهم الدكتور موضع بحثه ، وهو ماسنجعله موضوع المحاضرة الآتية ان شاء الله ؟

المحاضرة الثانية

ننتقل الى الكتاب الثانى للمؤلف وهو ماعنونه بقوله « أسباب انتحال الشعر » ، ونقدم للجمهور كلمة فى شعور المتقدمين من سلفنا بما سماه المؤلف انتحالا ، وما الذى كانوا يصنعونه أمام شعورهم هذا .

شعر علماء الآداب فى عصر حياة الأدب ونضرته ، صدر الدولة العباسية ، بأن من الشعر ماهو غير صحيح النسبة الى من نسب اليهم من الشعراء ، كما شعر المحدثون بأن من الأحاديث ماهو غير صحيح النسبة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقامت طائفة من الأولين بنقد الشعر ، كما قامت طائفة من الآخرين بنقد الحديث ، وبذل الفريقان مجهودا عظيما فى تمييز الطيب من الخبيث ... واتبعوا فى ذلك طريقين :

الأولى ، طريق الرواية ، وهى البحث فى رجال السند الذين رووا

الحديث أو قطعة الشعر . وهناك رجال قاموا بوضع كل رجل من رواة الحديث والآداب فى موضعه اللائق به،وهم المعروفون برجال الجرح والتعديل، قسموا الرواة أقساما ورتبوهم درجات : فمنهم النجم الثاقب لايتردد فى قبول روايته ، ومنهم من هودون ذلك ، ومنهم الضعيف لسوء حفظه أو عدم ضبطه . ومنهم الذين عرفوا بالكذب حتى لايترددفى رفض رواياتهم .

الثانية ، طريق الدراية ، وهى البحث فيما روى حتى اذا وجد مخالفا لما تقضى به العقول الصحيحة والأذواق السليمة رد على راويه .

وقد كان فى عالم الأدب هاتان الطريقان ، فعندهم من الرواة الثقات الأثبات ، وعندهم الضعفاء ، كما أنهم يحكمون الأذواق السليمة فى نقد الشعر الذى وصل اليهم . روى ابن سلاّم فى الصفحة الأولى من طبقات الشعراء أنه قال خلاّد بن يزيد الباهلى لخلف بن حيان أبى مُحْرِز ، وكان رجلا حسن العلم بالشعر يرويه ويقوله : بأى شئ ترد هذه الأشعار التى تروى ؟ قال له : هل تعلم أنت منها ما انه مصنوع لاخير فيه ؟قال: نعم، قال: أفتعلم فى الناس من هو أعلم منك بالشعر ؟ قال :نعم، قال :فلا تنكر أن يعرفوا من ذلك مالا تعرفه أنت ... وقال قائل لخلف: اذا سمعت أنا بالشعر واستحسنته فما أبالى ماقلت فيه أنت وأصحابك . فقال له : إذا أخذت أنت درهما فاستحسنته، فقال لك الصراف انه ردىء، هل ينفعك استحسانك له ؟

وكثيرا مانرى صاحب الأغانى يرد الشعر بأنه لين ظاهر التوليد ، كما تراه يرده بضعف رواته .

هذه طريقة السلف فى نقد الشعر ،وليس أجدى منها فى نقد الأخبار التى تصل الينا بأى طريق من الطرق .

أما الدكتور طه حسين، فان طريقته تلخص فى هذه الجملة « قد كان كذبٌ فى رواية الشعر الجاهلى، فيجب أن يرد هذا الشعر كله و نحكم عليه بأنه مكذوب مصنوع » ! وهى طريقة لو اتبعت فيما وصل الينا من الأخبار والروايات لانقطعت الصلة بيننا وبين أسلافنا،لأنه لاينكر أنه كان كذب فى التاريخ وكان كذب فى الأحاديث .فلو كان ثبوت الكذب فى جزئية، أو ثبوت الكذب على راوٍ من الرواة، مجيزا رد الأخبار كلها لكانت النتيجة ماقدمنا لك ... أما أن أضع هواى حكما فآخذ من الروايات مايتفق وهواى وأرفض منها ما يخالف دعواى، فهو أمر نظن أنه لم يقل به أحد، لاديكارت و لاغيره !..وسنبين أن مؤلف الشعر الجاهلى له من ذلك مالا يؤيده علم ولا نظر،حينما تعرض لبيان الأسباب فى انتحال الشعر .

ذكر المؤلف السبب الأول فى انتحال الشعر، وهو السياسة.فى هذا الفصل جاء على ذكر ما كان للمسلمين من دين ارتضوه وعصبية توارثوها ، فحركاتهم ومظاهر حياتهم متأثران بالدين والسياسة ، ثم جاء على ذكر الجهاد بين النبى صلى الله عليه وسلم وقريش ، وأن هذا الجهاد كان ورسول الله بمكة جدليا خالصا ثم اعتمد بعد الهجرة على القوة والسيف ، وأن الشعر كان له مركز يقارب مركز السيف .

وذكر أن العصبية لم يمتها الاسلام،بل بقى أثرها فى أنفس المسلمين، وأنهم كانوا يتناشدون الشعر الذى قالوه فى جاهليتهم ، ولا سيما

ماقاله الأنصار فى هجو قريش وما قالته قريش فى هجو الأنصار، وذكر حكايتين فى ذلك كان لعمر بن الخطاب فيها كلام . وحكايات أخر فيها شعر يدل على وجود هذه العصبية ، وأطال المؤلف فى ذكر هذه العصبية ، وأقام البرهان على وجودها بين المسلمين . وأن هذه العصبية كانت سببا فى أن يقال هذا الشعر ... كل ذلك مفهوم مفروغ منه وليس فيه من جديد . أما الجديد الذى فاجأ به القراء فهو قوله بعد ذكر هذه العصبية : « يستطيع الكاتب فى تاريخ الأدب أن يضع سفرا مستقلا فيما كان لهذه العصبية بين قريش والأنصار من التأثير فى شعر الفريقين الذى قالوه فى الاسلام وفى الشعر الذى انتحله الفريقان على شعرائهما فى الجاهلية » ،مع أن مقدمته الطويلة لم يوجد بها كلمة واحدة تتصل بأن فريقا من الفريقين اختلق شعرا ونسبه الى شعرائه فى الجاهلية . وانما الأحاديث كلها فى الشعراء الذين كانوا فى أول العهد الاسلامى يتقارضون الشعر ،وفى العهد الذى يلى ذلك .

أما بعد أن ذكر سائر العصبيات المنتشرة فى القبائل العربية فقد قال: « ان تلك القبائل كانت فى حاجة الى الشعر تقدمه وقودا لهذه العصبية المضطرمة ، فاستكثرت من الشعر وقالت منه القصائد الطوال وغير الطوال ونحلتها شعراءها القدماء »! وكأنه شعر كما يشعر كل قارئ بأن هذه فروض ، فنفى ذلك وأراد الاستدلال عليه ،فماذا فعل ؟ انه فزع الى ابن سلام .ولكنه تصرف فى النقل تصرفا معيبا لايليق بمثله!! قال فى ص ٤٥ :«قال ابن سلام : وقد نظرت قريش فاذا حظها من الشعر قليل فاستكثرت منه فى الاسلام »، وعقب على ذلك بقوله : « وليس من شك

عندى فى أنها استكثرت بنوع خاص من هذا الشعر الذى يهجى فيه الأنصار ، ثم قال فى ص ٦٦ : « وهو (أى ابن سلام) يحدثنا بأكثر من هذا ، يحدثنا بأن قريشا كانت أقل العرب شعرا فى الجاهلية ، فاضطرها ذلك الى أن تكون أكثر العرب انتحالا للشعر فى الاسلام » .

هاتان عبارتان نقلهما المؤلف الأستاذ عن كتاب الطبقات لابن سلام ، وقد قلبنا صفحات هذا الكتاب وقرأناه حرفا حرفا ، فلم نجد لذينك النصين من أثر ! نعم وجدنا فيه نصا آخر لايتفق مع هذين النصين ، وهو فى ص ٦٢ طبع أوربا ، حيث يقول بعد ذكر بيتين رواهما لأبى سفيان بن الحارث : « وأخبرنى بعض أهل العلم من أهل المدينة أن قدامة بن موسى ابن عمر بن قدامة بن مظعون الجمحى قالها ونحلها أبا سفيان ، وقريش تزيد فى أشعارها ، تريد بذلك الأنصار والرد على حسان » ، فأين هذه العبارة مما يقول من أن قريشا كانت أقل العرب شعرا فى الجاهلية فاضطرها ذلك الى أن تكون أكثر العرب انتحالا للشعر فى الاسلام ؟؟ ان لم يكن هذا من تحريف الكلم لتأييد الهوى ، فماذا يكون ؟

أطال المؤلف بعد ذلك فى بيان هذه القضية ، وهى أن أكثر الشعر الجاهلى ضاع شارحا لعبارة أبى عمرو بن العلاء ، وهى : « مابقى لكم من شعر الجاهلية الا أقله ، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير » . وكلامه فى هذا على طوله لايتصل بموضوع البحث ، لأن فرقا عظيما بين أن يكون أكثر الشعر ضاع وأن يكون مابقى منه منحولا ، فاستنباطه بعد ذلك أن القدماء كانوا يتبينون كما نتبين ونحسون كما نحس « أن هذا الشعر الذى يضاف الى الجاهليين أكثره منحول » استنباط لايتفق والعلم

فى شئ ! والا ، فليبين لنا : من من القدماء ذكر هذه القضية التى زعم أن القدماء كانوا يحسون بها كما أحس ويتبينونها كما يتبين ؟

وبعد ذلك كله ، ألم يكن من واجب المؤلف ، وهو أستاذ كبير ، أن يذكر لقراء كتابه بعض الشعر الذى وضعته قريش فى الاسلام ونسبته الى بعض شعرائهم فى الجاهلية وكان الداعى الى وضعه السياسة ؟ انه لم يذكر شيئا من ذلك ، وكل كلامه حول الشعر الذى قيل فى العهد الاسلامى ، وليس لهذا وضع الشيخ كتابه !

ذكر السبب الثانى من أسباب وضع الشعر ، وهو الدين . وذكر فى أوله مايفزع اليه عادة اذا أعوزه البرهان ، فقال : « ولو أن لدينا من سعة الوقت وفراغ البال ما نحتاج اليه هذا الموضوع ، للهونا وألهينا القارئ بنوع من البحث لايخلو من فائدة علمية أدبية قيمة ، وهو أن نضع تاريخا لهذا الانتحال المتأثر بالدين » ! وهو كلام لاطائل تحته ولا أثر له فيما يكتب ، وهو عليه لاله ، لأن اثبات هذه النظريات من أهم ما ألف الكتاب لأجله ، فلا يجوز الضن عليه بما لا يخلو من فائدة علمية أدبية قيمة ! ولكن الأستاذ اعتاد أن يلهو بعقول قرائه بهذا وأشباهه !

من أول ماغنى برده ماقيل من الشعر ممهدا لبعثة النبى صلى الله عليه وسلم :

كون علماء العرب وكهانهم وأحبار اليهود ورهبان النصارى كانوا ينتظرون بعثة نبى عربى يخرج من قريش أو مكة ، من المسائل التى ذكرها القرآن ، والمؤلف نفسه قال فى الصفحة الثامنة من كتابه : « وأنا

أزعم مع هذا كله أن العصر الجاهلى القريب من الاسلام لم يضع ، وأنا نستطيع أن نتصوره تصورا واضحا قويا صحيحا ، ولكن بشرط ألا نعتمد على الشعر بل على القرآن من ناحية والتاريخ والأساطير من ناحية أخرى» ...قال الله تعالى فى سورة البقرة متحدثا عن اليهود :« ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم،وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به» ،فاذا كان هناك حديث عن قرب بعثة نبى ، وكان اليهود وهم أهل كتاب ينذرون المشركين من العرب بتقارب زمنه، فسواء قلنا بما يدين به المسلمون قاطبة من أن القرآن الكريم من الله ، وأنه حق وصدق لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، أم بما قرره المؤلف فى صدر كتابه من أن تاريخ العصر الجاهلى القريب من الاسلام انما يعتمد فيه على القرآن والتاريخ والأساطير، فان الأخبار عن قرب بعثة نبى كانت شائعة معروفة عند أهل الكتاب والمشركين، فلاحاجة بعد ذلك الى تأييد ذلك بوضع أبيات من الشعر تدل على صدق القرآن فى خبره . يقول : « وفى سيرة ابن هشام وغيرها من كتب التاريخ والسير ضروب كثيرة من هذا النوع »! وهذا الكلام غير صحيح ، فقد قرأنا هذه السيرة مراراً ، ولا سيما فيما يمهد لبعثة النبى صلى الله عليه وسلم ، فلم نجد بيتاً واحداً فى الموضوع الذى ذكره،وانما الشعر الذى رأيناه فى فصل عنوانه « أمر الأربعة المتفرقين عن عبادة الأوثان فى طلب الأديان » ، وفى هذا الفصل قطع شعرية كلها فى التوحيد وترك عبادة الأوثان ، وأكثرها لزيد بن عمرو بن نفيل ،ومنها قطعة لورقة ابن نوفل، وليس فى شىء منها مايتعلق بالموضوع وهو التمهيد لبعثة نبى عربى ولا ذكره.وليس

من ينكر أنه كان فى العرب قبل الاسلام من تأله وترك عبادة الأوثان وشك فيما عليه الناس من ذلك .

ينتقل بعد ذلك الى الأشعار المنسوبة الى الجن ، ويزعم أن القصاص والرواة « انما أنطقوا الجن بضروب من الشعر وفنون من السجع »! وهذا من المجازفة التى لاتحتمل ، فان أمر الجن شائع فى أيام العرب ، وكانوا يزعمون أن لكل شاعر من كبار شعرائهم جناً يؤيده فى شعره . فادعاؤه بعد ذلك أن هذا كان أثراً من آثار القرآن غير صحيح ، اذ لادليل عليه . ولفلاسفة المسلمين وعامتهم آراء مختلفة فى تفهم حقائق الجن . ليس هذا موضع بيانها ، لو قرأها الاستاذ لاستراح وأراح .

من غريب أمر الأستاذ قوله بعد ذكر الأبيات التى رثى بها عمر بن الخطاب فى ص ٧١ : « والعجب أن أصحاب الرواية مقتنعون بأن هذا الكلام من شعر الجن ، وهم يتحدثون فى شىء من الانكار والسخرية بأن الناس قد أضافوا هذا الشعر الى الشماخ بن ضرار » . يريد الشيخ بهذه العبارة أن ينسب لجميع الذين رووا هذا الشعر وهم أصحاب الرواية مانسبه اليهم ! ولا يظهر عوار هذا الكلام وخلوه من التحقيق العلمى بأكثر من أن ننقل عبارة ابن سلام ، وهو أقرب كتاب اليه لأنه كثيرا ماينقل عنه . قال فى ص ٢٩ : « وكان للشماخ اخوة وهو أفحلهم ، ومزرّد وهو أشبههم به وله أشعار وشهرة ، وجزء وهو الذى يقول يرثى عمر بن الخطاب :

جزى الله خيراً من أمير وباركت .... الخ . »

فابن سلام من أصحاب الرواية ، بل هو عمدة مقدم ، وليس من المقتنعين بأن الشعر للجن ، ولم يتحدث فى شىء من الانكار والسخرية بأن الناس

قد أضافوا هذا الشعر الى الشماخ . أما نسبة الأبيات الى الجن فقد ورد فى طبقات ابن سعد فى حديث لعائشة قالت : « لما كان آخر حجة حجها عمر بأمهات المؤمنين قالت : اذ صدرنا عن عرفة مررت بالمحصب سمعت رجلا على راحلته يقول : أين كان عمر أمير المؤمنين ؟ فسمعت رجلا آخر يقول : هنا كان أمير المؤمنين ... قال : فأناخ راحلته ثم رفع عقيرته فقال :

عليك سلام من أمير وباركت ... الخ .

فلم يُحرَّك ذاك الراكب ولم يُدر من هو ، فكنا نتحدث أنه من الجن ، .. قال : فقدم عمر من تلك الحجة ،فطعن ،فمات . وروى بعد ذلك أن عائشة قالت : من صاحب هذه الأبيات : جزى الله خيرا من أمير وباركت ،فقالوا : مزرد بن ضرار ، قالت : فلقيت مزردا بعد ذلك فحلف والله ماشهد تلك السنة الموسم ».

وليس فى ذلك الحديث شئ من الانكار والسخرية اللذين زعمها المؤلف ، بل هو يدل على أن فريقا من الناس كانوا يرون أن الشعر لجزء أو لمزرد بن ضرار ، وفريقا يرى أن قائله من الجن . وليس هناك مايدل على انكار أو سخرية ! . . وانما أدللت فى هذا لأدل على أنه يجب على الأستاذ أن يكون متحريا فى نقله ، مدققا فى جمله ، لايرسلها ارسالا لمجرد أنه يريد الاستهانة بفريق من الرواة الذين لولاهم لم يكن شيئا !!

رأى كذلك أن من منحول الشعر مايتصل بتعظيم شأن النبى من ناحية أسرته ونسبه فى قريش .

لاينكر الأستاذ ولا أحد ممن كتب فى تاريخ العرب أن قريشا كان

لها التقدم والسيادة من أجل مركزها وصلتها بالكعبة وثروتها التى وصلتها من طريق التجارة ، وقد ذكر ذلك المؤلف نفسه فى ص ٢٧ من كتابه ، ولا ينكر التاريخ أن بنى عبد مناف من قصى ثم من قريش كان لها التقدم على سائر بطون قريش بما كان لها من الأعمال الجسام التى تتولاها فى مكة من السقاية والرفادة وغير ذلك ... كان هذا معروفا عند العرب قبل الاسلام ، أما الأستاذ فعكس الأمر حيث جعل اقتناع الناس بأن النبي صلى الله عليه وسلم يجب أن يكون صفوة بنى هاشم الخ سببا فى اختراع القصص والأشعار التى تشتمل على مثل ذلك !ولم ذلك ياسيدى الاستاذ ؟ لم أنكرت جميع الأخبار التاريخية الدالة على أن العرب كانوا مقتنعين قبل الاسلام بما لبنى عبد مناف ولقريش من الفضل والتقدم ، وأن شعرهم نطق بذلك ، واخترت أن يكون الاسلام هو الذى أثار ماقيل من الشعر فى تفضيل هؤلاء القوم الذين منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أقدمت دليلا أو شبهة ؟ أم أنك ذو هوى تحكمه ؟ أم أنك لاتشك فى القول حين تحتاج اليه ، ثم تنكره بعد ؟ وانى أقدم للقراء دليلا واضحا على أن الهوى قد غلب عليك ، فصرت تحكمه فى عبارات التاريخ التى لم تعط أمانة العلم حقها فى نقلها .

ذكر ابن سلام فى الطبقات فى ذكر عبد الله بن الزبعرى أحد شعراء قريش قوله : « وقال لبنى المغيرة بن عبد الله المخزوميين ، وكان لهم بلاء فى حرب الفجار وأمهم سهمية واسمها ريطة :

ألا لله أم و لدت أخت بنى سهم ...

الابيات » .

ولم يتردد فى نسبتها اليه .

وقال صاحب الأغانى فى ترجمة عمر بن أبى ربيعة ص٢٨ من الجزء الأول راويا عن مصعب بن الزبير والمدائنى والمسيبى ومحمد بن سلام قالوا : وفيه – أبو ربيعة بن المغيرة – يقول عبد الله بن الزبعرى . . . وأنشد الأبيات .

ثم روى بعد ذلك رواية عن عبد العزيز بن أبى نهشل عن أبيه قال : قال لى أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وجئته أطلب منه مغرما : ياخالى هذه أربعة آلاف درهم ، وأنشد هذه الابيات الأربعة ، وقل سمعت حسانا ينشدها رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فقلت : أعوذ بالله أن أفترى على الله ورسوله ، ولكن ان شئت أن أقول سمعت عائشة تنشدها فعلت . . فقال : لا ، الا أن تقول سمعت حسانا ينشدها رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس . . فأبى على وأبيت عليه ، فأقمنا لذلك لانتكلم عدة ليال ، فأرسل الىَّ فقال : قل أبياتا تمدح بها هشاما ، يعنى ابن المغيرة ، وبنى أبيه ، فقلت : سمهم لى ، فسماهم وقال : اجعلها فى عكاظ واجعلها لأبيك ، فقلت (وذكر الابيات) ، ثم جئت فقلت : هذه قالها أبى ، فقال : لا ولكن قل قالها ابن الزبعرى ، قال : فهى الى الآن منسوبة فى كتب الناس الى ابن الزبعرى . وروى صاحب الأغانى رواية أخرى عن محمد بن طلحة أن عمر بن أبى ربيعة قائل هذه الابيات .

أمام أستاذ الآداب ثلاث روايات : الأولى رواها الاكثرون وفيهم محمد بن سلام أن هذه الابيات قالها ابن الزبعرى من غير تردد ، والرواية الثانية أن قائلها أبو نهشل ، والرواية الثالثة أنها لعمر بن أبى ربيعة . ومن

هذا البيان يفهم أن كتاب الشعر الجاهلى مضطرب فى نسبة الحادثة أولا الى أبى بكر بن الحرث بن هشام : ص ٧٤ ، ثم قدح ثانيا فى أبيه الحرث ابن هشام : ص ٧٥ ، الذى لم يرد له ذكر فى الحادثة !

لو كان المؤلف يريد النقد الصحيح الذى أساسه الشك كما يقول لكان له فى هذه الحكاية موقف آخر ، لأنه اذا سئل : أيها الأستاذ ما الذى دعاك الى رفض الرواية التى رواها الأكثرون من نسبة الأبيات لابن الزبعرى ، والرواية الأخرى التى رواها صاحب الأغانى من نسبة الأبيات لعمر بن أبى ربيعة وهو مخزومى وذلك مما يقرب الى النفس أنه قائلها ، ثم ارتضيت رواية ثالثة لرجل ربما يكون له غرض فى تجريح أبى بكر ابن الحارث بن هشام ؟ هل تستند فى ذلك الى شىء ؟ ألأن هذه الرواية فيها تجريح ارتضيتها ، لأن ذلك مما يساعدك على ماقصدت له ؟ !

أما نحن وأمثالنا من أهل القديم ! فان لنا منحى آخر فى بحث هذه الحكاية : ذلك أننا ننظر الى تاريخ أبى بكر بن الحارث ، والى شخصيته كيف كانت ، فان رأيناها تساعد على مثل هذا الهذيان كان ذلك مما يشككنا فى رواية الأكثرين ، والا بقيت روايتهم على قوتها .

قال ابن سعد فى الطبقات الكبرى ص ١٥٢ من الجزء الخامس طبع أوربا : ولد أبو بكر فى خلافة عمر بن الخطاب ، وكان يقال له راهب قريش لكثرة صلاته ولفضله ، وكان قد ذهب بصره ، وليس له اسم كنيته اسمه ، واستصغر يوم الجمل فرد هو وعروة بن الزبير ، وقد روى أبو بكر عن أبى مسعود الأنصارى وعائشة وأم سلمة وكان ثقة فقيها كثير الحديث عالماً عاقلا سخياً ... وترى فى ص ١٥٤ أن عروة استودع أبا بكر

مالا من مال بنى مصعب ، فأصيب ذلك المال عند أبى بكر أو بعضه. فأرسل اليه عروة أن لاضمان عليك انما أنت مؤتمن ، فقال أبو بكر : قد علمت أن لاضمان علىّ ، ولكن لم تكن لتتحدث قريش أن أمانتى خربت ، فباع مالا له فقضاه ... ثم قال : وكان عبد الملك بن مروان مكرماً لأبى بكر مجلا له ، وأوصى الوليد وسليمان باكرامه . وقال عبد الملك : انى لأهم بالشئ أفعله بأهل المدينة لسوء أثرهم عندنا فأذكر أبا بكر بن عبد الرحمن فأستحيى منه فأدع ذلك الأمر اه .

وقال الذهبى فى تذكرة الحفاظ فى ترجمة أبى بكر ص ٥٤ طبع الهند : ان أبا بكر أحد الفقهاء السبعة ، وكانوا كلهم بالمدينة اه .

فرجل هذه حياته ينتظر منه أن يساوم شاعراً على أن يختلق أبياتاً من الشعر ينسب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم استماعها ! وليس فى هذه الأبيات ماله خطر فى تاريخ آل المغيرة الذين لا تجهل قريش أقدارهم !

أفلا نرى بعد ذلك أن الدكتور اتبع الهوى ، فبادر الى تصديق حكاية سخيفة من غير أن يؤيدها مايقويها ، وذكرها وحدها دون أن يذكر الروايات الأخرى ، ارادة أن يخدع عقول القراء فيفهموا أن هذه هى الرواية فيتبعوه فيما يريد أن يثبته من تجريح الناس واشاعة السوء فيهم ؟! ألا يدعونا ذلك الى القول بأنه متعصب لرأى معين يصطاد له من الأقوال مايؤيده ، تاركاً التحقيق العلمى الذى يوصل الى الحق أينما كان ؟!... انى أترك للقراء الحكم فى ذلك .

ذكر الأستاذ بعد ذلك من منحول الشعر ما أورده المفسرون زاعماً أنهم انما أوردوه لاثبات عربية القرآن ! ثم غلا فقال : «فحرصوا أن يستشهدوا

على كل كلمة من كلمات القرآن بشيء من شعر العرب يثبت أن الكلمة عربية لاشك فى عربيتها ». وهذه الجملة فيها غلو أبعدها عن محجة الصدق، وفيها خطأ . أما الغلو ففى قوله انهم استشهدوا على كل كلمة منه : بين أيدينا التفسيران الكبيران اللذان عنيا بهذا الاستشهاد أتم عناية ، وهما تفسير الامام الكبير أبى جعفر الطبرى وتفسير الكاتب العظيم أبى عمر الزمخشرى ، ومع مافيهما من الشواهد الكثيرة فان ادعاء الاستشهاد على كل كلمة لايؤيده الواقع ؛ان شواهد الكشاف عددها ٧٢٧ شاهداً ،وليس هذا عدد كلمات القرآن . ولو كانت كتابة المؤلف فى الموضوعات التى تستحسن فيها المبالغات لعذرناه ،ولكنه يقدم كتابه الى القراء كتاباً علمياً يذكر الحقائق فى مقدماته لتصح القضايا المترتبة عليها . وأما الخطأ فى ظنه أن هذه الشواهد كلها جاهلية جيء بها لاثبات عربية القرآن!.. أكثر هذه الشواهد لشعراء اسلاميين ، وقليل منها ماهو لشعراء جاهليين أو مجهولين ، نرى منها ماهو لجرير والفرزدق والأخطل ومن يشابههم من شعراء بنى أمية ،بل كثيراً مايستشهد صاحب الكشاف بمن هم أنزل من ذلك من شعراء بنى العباس كأبى نواس والبحترى والمتنبى ،وهذا الشعر مما يسلم صحته المؤلف ،وأكثر مااستشهدوا به من الشعر الجاهلى انما هو من الشعر المعروف الظاهر الذى رواه غير المفسرين ، وهذا احصاء أضمن صحته ، وسأضرب الأمثال التى توضحه . وليس الاستشهاد لاثبات عربية القرآن كما يزعم ، وانما هو لبيان مفهوم الكلمات التى يعدها الناس أحيانا غريبة . على أن هذا المعنى قد يلحظ أحيانا ،وهو أن القرآن ليس ببدع فى اللغة ، وانما جاء بلغة العرب لم تشذ فيه كلمة عن مناهجهم .

قلت ان صاحب الكشاف أحيانا يستشهد بشعر المحدثين ، وهذا كثير ،ومثله ماجاء فى سورة البقرة فى تفسير قوله تعالى: « صم بكم عمى فهم لايرجعون » ،قال : فان المنافقين لما وصفوا بأنهم اشتروا الضلالة بالهدى، وعقب ذلك بتمثيل هداهم الذى باعوه بالنار المضيئة حول المستوقد، والضلالة التى اشتروها بذهاب الله بنورهم وتركه اياهم فى الظلمات ،فكأنهم من حيث سدوا مسامعهم عن الاصاخة لما يتلى عليهم من الآيات والذكر الحكيم، وأبوا أن يتلقوها بالقبول وينطقوا بها ،وأصروا على ذلك،صاروا كفاقدى تلك المشاعر بالكلية كقوله :

صم اذا سمعوا خيرا ذكرت به وان ذكرت بشر عندهم أذنوا!

وقوله :

أصم عن الشىء الذى لايريده وأسمع خلق الله حين يريد!

وهذا عند مغلق سحرة البيان من باب التمثيل البليغ المؤسس على تناسى التشبيه ، كما فى قول أبى تمام :

ويصعد حتى يظن الجهول بأن له حاجة فى السماء!

وما جاء فى سورة النبأ عند قوله تعالى: « وجعلنا الليل لباسا » ، قال: يستركم عن العيون اذا أردتم هربا من عدو أو بياتا له أو اخفاء مالا تحبون الاطلاع عليه من الأمور، كما فى قول المتنبى :

وكم لظلام الليل عندى من يد تخبر أن المانوية تكذب !

أما الأبيات التى استشهدوا بها ، وهى من شعر الشعراء الاسلاميين، فكثيرة جدا ،وربما تبلغ نصف هذه الشواهد التى ذكرت عددها .

ومثل ذلك قول صاحب الكشاف فى تفسير قوله تعالى:« يخادعون

الله والذين آمنوا » ، يعنى : أن المؤمنين وان جاز أن يخدعوا لم يجز أن يخدعوا ، ألاترى الى قول ذى الرمة :

تلك الفتاة التى علقتها عرضا ان الحليم وذا الاسلام يختلب !

ويختلب يخدع .

وكقوله فى تفسير قوله تعالى : « فذرهم فى غمرتهم حتى حين » . فى جهالتهم ، شبهها بالماء الذى يغمر القامة لانهم مغمورون فيها أو لاعبون بها ، وذكر بيت ذى الرمة :

ليالى اللهو يطبينى فأتبعه كأننى ضارب فى غمرة لعبُ !

وكقوله فى تفسير قوله تعالى : « كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون » أى أكلا وشربا هنيئا ، أو طعاما وشرابا هنيئا وهو الذى لاتنغيص فيه . ويجوز أن يكون مثله فى قول كثير :

هنيئا مريئا غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استحلت

الى غير ذلك ...

وأكثر منه الاستشهاد بالشعراء الاسلاميين الذين كانوا قبل العهد الأموى ، والمخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والاسلام .

وأما الشعر الجاهلى ، فكما قلت أكثره من القصائد التى يتداولها غير المفسرين من رجال الأدب ورواة الشعر .

انك يا ابن أخى أردت تجريح المفسرين بكلامك الذى أسرفت على نفسك فيه ! وأردت أن تتهمهم بالكذب والاختلاق ! ولو اتقيت الله وحافظت على العلم لدرست هذه الشواهد قبل أن تقول ماقلت ! ولا أدرى أأعذرك

فى هذا أم ألومك ؟ انما لى الحق أن أرد هذه التهمة عليك وأقول لك خير القولين : انك اتهمت قوما لاعن علم ، بل انك قصرت واغتررت بشئ يسير ألقى اليك، فكنت سببا فى خديعة الجمهور الذى لايظن أن يوجد هذا من عالم ! ! . . .

ليس من المعقول أن تثبت صحة القرآن كما تقول بأشعار قيلت بعد نزول القرآن وتلاوة المسلمين اياه ! وانما كما قلت لك ان الغرض من هذه الشواهد هو بيان مفهوم الكلمات التى قد تظهر غريبة بعد انقضاء العصر العربى وانضمام عناصر غير عربية للدين الاسلامى . لا أقول قولى هذه أريد به أن أقول ليس فى هذه الشواهد كلها الا الصحيح السليم الذى رواه ثقات الأئمة، بل فيها عدد من الأبيات نقده جهابذة الآداب وحكموا بأنه مصنوع. وقد بين طرفا من ذلك السيوطى فى مزهره تحت عنوان (النوع الثامن معرفة المصنوع) فى ص ٨٥ من الجزء الاول .

انتقل المؤلف بعد ذلك الى جماعة آخرين يريد تجريحهم ، وهم طائفة العلماء الذين كانت بينهم خصومات، يريد بذلك أصحاب المقالات من أهل السنة والمعتزلة ومن يماثلهم... وقال: «ان هؤلاء العلماء كانوا حراصا على أن يظهروا دائما مظهر المنتصرين فى خصوماتهم الى الحق والصواب فيما يذهبون اليه من رأى ، وأى شئ يتيح لهم هذا مثل الاستشهاد بما قالته العرب قبل نزول القرآن، وقد كثر استغلالهم لهذا الاستشهاد . فاستشهدوا بشعر الجاهليين فى كل شئ »!! لمن تكتب ياأستاذ ؟ أظنك استهنت بالعقول الى الدرجة التى لاتحتمل ! أين هذا الذى تذكره ؟ أين استشهاد أصحاب

المقالات فى كل شئ بالشعر الجاهلى ؟ أشهد لقد أسرفت على نفسك وعلى الناس ! بل أشهد أنك غير صادق! وأنك تتعمد تجريح الناس فيما تقول! هاهى ذه كتب المقالات بين أيدينا ،تصفحنا الكثير منها، وقرأنا فصولها. فلم نجد بها أثرا مما تزعم، ألأنك تريد مهاجمة الشعر الجاهلى !! تستبيح لنفسك الغض من كل من تكلم فى العلم من سلفنا ! لافرق عندك بين أديب ومفسر وعالم !.. ويل لهؤلاء الناس من الشعر الجاهلى ! قد غرك شطر من الشعر قرئ لك لا يدرى فى أى كتاب هو ،فاستمسكت به وجعلته دليلا على تجريح هؤلاء العلماء ووسمهم بتعمد الوضع !!.

بعد أن خص المؤلف جماعات من المسلمين بالطعن الذى تناول مفسريهم وعلماءهم ، أراد أن يعم المسلمين جميعا بالطعن، مما جعلنى أفهم وأتأكد أن عنوان الكتاب وهو (فى الشعر الجاهلى) انما جعل سترة لحجب الغرض الحقيقى منه ، كما قال القائل :

وجعلت زينب سترة وأتيت أمرا معجبا !!

انتقل الى فن آخر جعله « أعظم هذه الفنون كلها خطرا وأبعدها أثرا » : ذلك أن الجدل الذى كان بين النبى صلى الله عليه وسلم وخصومه خبت ناره حتى انتهت الفتوح واستقر العرب بالأمصار واتصلت الأسباب بينهم وبين المغلوبين من النصارى وغيرهم. استؤنف هذا الجدل وأخذ صورة أقرب الى النضال منها الى شئ آخر » ..ثم أشار الى نوع من هذه الخصومات ،فقال : « أما المسلمون فقد أرادوا أن يثبتوا أن للاسلام أولية فى بلاد العرب كانت قبل أن يبعث النبى ،وأن خلاصة الدين الاسلامى وصفوته هى خلاصة الدين الحق الذى أوحاه الله الى الانبياء من

قبل . فليس غريبا أن نجد قبل الاسلام قوما يدينون بدين الاسلام أخذوه من هذه الكتب السماوية التى أوحيت قبل القرآن » .. ثم قال : « وشاعت أثناء ظهور الاسلام وبعده فكرة أن الاسلام يجدد دين ابراهيم ، ومن هنا أخذوا يعتقدون أن دين ابراهيم هذا قد كان دين العرب فى عصر من العصور ثم أعرضت عنه لما أضلها به المضلون وانصرفت عنه الى عبادة الاوثان ، ولم يحتفظ بدين ابراهيم الا أفراد قليلون يظهرون من حين الى حين ، وهؤلاء الأفراد يتحدثون فنجد من أحاديثهم مايشبه الاسلام ، وتأويل ذلك يسير . فهم أتباع ابراهيم ودين ابراهيم وهو الاسلام » .

غير خاف أن الاسلام قرر هذه القضية . وهى أن الاسلام خلاصة الدين الحق الذى أوحى الى الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم بقوله : « شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا ، والذى أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » ، وقرر أيضا مقدار ارتباط الاسلام بابراهيم صلوات الله عليه بقوله : « ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل » والمسلمون قاطبة يرون أن القرآن حق وصدق يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، .. فهل هم وهذه حالهم فى حاجة الى أن تقوى مقالتهم فى القرآن بذكر خبر عن اثنين أو ثلاث من أهل الجاهلية ، كانوا فى شك مما هم فيه من عبادة الاوثان ، فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الدين الحق ؟؟ يريد الاستاذ أن يضع عقيدة المسلمين فى موضع من الشك والتردد ، يدعوهم الى مثل هذا السخف وهو وضع خبرتافه ليس فيه شئ يعتمد العاقل عليه !! أليس من الطبيعى

ياسيدى الاستاذ فى قوم عكفوا على عبادة الأوثان ، وهى حجارة لاتضر ولا تنفع. أن يحوم الشك حول قلوب أشراد منها، فيبحثوا عن الدين الحق عند من يرونه أهدى منهم؟ بلى ذلك طبيعى ! واذا كان الامر كذلك فما معنى قولك « وتفسير ذلك من الوجهة العلمية يسير أيضا ، فأحاديث هؤلاء الناس قد وضعت لهم وحملت عليهم حملا بعد الاسلام ،لالشئ الا ليثبت أن للاسلام فى بلاد العرب قدمة وسابقة »! أى علم تريده يحملك على هذا التأويل؟ أهو علم التحكم والهوى؟ أم علم خصصت به وحدك ؟ انا نعرف العلم بأنه القضايا المستنبطة من المقدمات التى قامت الأدلة على صحتها .وأنت رأيت حديثا عن قوم تألهوا فى الجاهلية فنعوا على قومهم ماهم عليه من عبادة الأوثان ،فتفرقوا يطلبون الحق من الدين ، وقالوا فى ذلك شعرا أثر عنهم . فتقول ان العلم يقضى بأن هذا الحديث كذب وأنه قيل بعد الاسلام وحمل على أولئك النفر حملا ... لماذا ياسيدى ؟ أنت صاحب مذهب الشك كما تقول ، فاذا قلت : أنا أشك فى صحة هذا الحديث ، قلنا انك معذرور لان مذهبك حكم عليك! ولكن حكمك بعد ذلك أن المسلمين هم الذين وضعوا هذا الخبر بعد الاسلام وحملوه على المتقدمين ، لأنهم يريدون أن يثبتوا لدينهم قدمة فى بلاد العرب، حكم ينبو عنه العلم الذى تزعم انتساب تأويلك اليه ! ان حكمك لايتأيد الابمقدمات ثلاث ، دون اثبات واحدة منها عقبات لاتحتمل اجتيازها : (١) أن الخبر غير طبيعى أو غريب (٢) أن المسلمين كانوا مترددين فى أخبار كتابهم (٣) أنهم كانوا يستهينون بالكذب فى اثبات مايدعون ... وشئ من ذلك لم يكن ، فان الخبر كما قلنا عادى مألوف، والمسلمون كانوا من الثقة بأخبار

كتابهم حسبما وصف به نفسه « وانه لكتاب عزيز لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه »، ولم يكن الجمهور الاسلامى يستهين بأمر الكذب ، بل كانوا اذا وجد فيهم من عرف عنه الكذب أو اتهم بسوء الحفظ أو بقلة الضبط لم يترددوا فى اعلان مركزه وأنه لا يجوز الأخذ بروايته ..فادعاؤك انتساب تأويلك الى الوجهة العلمية اذاً غير صحيح،وهو مردود عليك .

انتقل المؤلف بعد ذلك الى حديث يردد ذكره أعداء القرآن ، وهو مايسمونه بمصادر القرآن،(واهتم بوجه خاص بما ذكره الاستاذ كليمان هوار) من أن من مصادر القرآن شعر أمية بن أبى الصلت، وأنه استنبط من ذلك أن هذا الشعر المنسوب لأمية صحيح لانه ليس متفقا مع القرآن تماما، ولو كان منحولا لخالفه بعض الخلاف ، وأن صحة هذا الشعر واستعانة النبى به فى نظم القرآن قد حملتا المسلمين على محاربة شعر أمية ليستأثر القرآن بالجدة وليصح أن النبى قد انفرد بنقل الوحى من السماء . ومع أن المؤلف يخالف الاستاذ هوار فى نتائج بحثه ، فقد تعرض له فى أناة ورفق بدأهما بأنه أشد الناس اعجابا به وبطائفة من أصحابه المستشرقين، وبما ينتهون اليه فى كثير من الأحيان من النتائج العلمية القيمة فى تاريخ الأدب العربى ، وبالمناهج التى يتخذونها للبحث !أليس فى سلفك من علماء الأدب من يستحق منك شيئا من مثل هذا الكلام الحلو ، عندما تناقشهم فى آرائهم ، وعند ماتظنهم يخطئون فى بعض أفكارهم ؟ أليس لواحد منهم عندك أثر من هذا الاعجاب ؟ ان موقفى معك يادكتور هو موقفك أمام الأستاذ المستشرق !وهو أنى أعجب كيف يتورط العلماء أحيانا فى مواقف لاصلة بينها وبين العلم ! ومن الغريب من أمرك

أنك تشك فى الشعر الجاهلى وفى كل من رواه ، وتقف موقف المستيقن المطمئن من خبر يرويه رجل لاقيمة له فى التاريخ العام ولا الخاص اذا كان من ورائه تجريح لأحد الأئمة مهما كان قدره حتى لو كان الجارح أبا عبيدة والمجروح أبا عمرو بن العلاء !! لايهمنا أن يكون قد ضاع شئ من شعر أمية بن أبى الصلت أو أنه روى كله ، على أنه من المحال أن يروى كل شعر قاله شاعر من شعراء تلك العصور ، وانما الذى يهمنا أن نرد عليك ماتريد اثباته من أن المسلمين نهوا عن رواية الشعر الذى هجاهم به المشركون ! وهاهى ذى سيرة ابن هشام فيها الشعر الذى قاله شعراء المسلمين وبجانبه نقيضه مما قاله شعراء المشركين . وقد رويت أنت أنهم كانوا يتناشدون هذه الأشعار فى مجامعهم ، وأن عمر كان نهاهم عن ذلك ثم أذن لهم فيه .

لما أتم الأستاذ طعنه فى المسلمين بأنهم تعمدوا اختلاق الشعر فى الاسلام ليثبتوا أن لدينهم قدمة فى بلاد العرب ، تعداهم الى اليهود والنصارى واتهمهم بأنهم وضعوا شعرا على ألسن أهل الجاهلية منهم . وذكر منهم اثنين : أحدهما عدى بن زيد من نصارى الحيرة ، والثانى السموءل بن عادياء من يهود تيما . ولو تأنى الاستاذ فى حكمه لعلم أن الشعر المنسوب الى عدى بن زيد انما روى أنه قاله وهو مسجون ، فان النعمان سجنه حتى مات فى سجنه ، فقال فى تلك المحنة قصائده الطويلة يستعطف بها النعمان ، . . فاذا كان النصارى انما اختلقوا ذلك لاثبات أن لهم مجدا وسؤددا قديمين كما تقول ، أكان يعجزهم أن يتخيروا ظرفا غير هذا ينال به سلفهم شيئا من الفخار والمجد ؟ أكان يعجزهم ذلك وهم يكذبون

ويختلقون ؟ انا نعلم أن الكاذب لايعجزه شئ ، وماذا تجد فى تعليلهم سهولة شعر عدى بالاقليم والاتصال بالفرس واصطناع الحياة الحضرية التى كان يصطنعها أهل الحيرة ؟ ولم يكون هذا غير مقبول فى نظرك ؟ والسموءل ليس كما تقول من أنه كان يعيش عيشة خشنة ، وانما هو رجل من أهل المدر كان يعيش فى حصنه بتيماء عيشة الأمراء ؟ فلم لايكون هذا سببا فى لين شعره وسهولته .

ختمت هذا الفصل بقولك : « واذا كان من الحق أن نحتاط فى قبول الشعر الذى يظهر فيه تأثير ما للأهواء السياسية ، فمن الحق أيضا أن نحتاط فى قبول الشعر الذى يظهر فيه تأثير ما للأهواء الدينية » . وهذه جملة لايوجد من يخالفك فيها ، لأن الاحتياط واجب فى قبول كل خبر ، وليس هذا هو الذى تدعو اليه ، انما أنت تنكر انكارا متأثرا بالهوى أيضا من غير أن يكون عندك دليل أو شبهة . مهما كانت ثقة الناس برواة الخبر ، ومهما كان الخبر فى ذاته يتعلق بشىء عادى مألوف .

انتقل المؤلف بعد ذلك الى ذكر سبب ثالث من أسباب الانتحال ، وهو القصص .

نعلم أنه كان فى العهد الأموى قصاص يرتزقون من الدولة ويقومون بنصح الناس فى المساجد العامة ، وهم الذين عرفوا فى أزماننا بالوعاظ ، ولكننا فى الواقع لم نتعمق فى درس حياة القصاص الذين كانوا يقصون فى البصرة والكوفة ومكة والمدينة وغيرها من الأمصار حتى يظهر لنا ذلك « من غير شك » على الصلات التى كانت تصل بين هؤلاء القصاص وبين

الأحزاب السياسية . ومع هـذا فانا نضرب المثل هنا برجل عظيم كان نبراس مسجد البصرة وهو الحسن بن أبى الحسن البصرى ، فان تاريخ هذا الرجل يدلنا على أنه كان بعيدا عن جميـع الأحزاب السياسية التى تداولت الملك لعهده ، وكانوا جميعا مع كرههم له يجلون قدره ، لأن الرجل لم يجعل فى علمه حظا لغير الله ،ولم تكن علاقته طيبة الامع الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز الخليفـة الثامن من بنى أميـة ، أما الحجاج ونظراؤه من رجال الطغيان وأئمة الاستبداد فلم يكن الحسن يأبه بهم ولا يضرب فى حبالهم، ولو أدى ذلك الى أن يقطعوا رزقه من بيت المال، وقد فعلوا ذلك فما حفل بهم ولا أذل الحرص عنقه ولا فل من غربه،وهوكان واعظ أهل البصرة وقاصهم ، وقد أجمع الناس على أنه ثقـة امام . ولعلنا لو تعمقنا فى البحث كما يقول المؤلف لوجـدنا كثيرا من أمثاله ، عـلى أنا لانتكر أنه كان من هؤلاء القصاص من ضعفت أنفسهم فجعلوا من قصصهم وأحاديثهم عونا للدولة التى ترزقهم ، كما يكون ذلك فى كل عصر وفى كل مكان ، فيقولون فى قصصهم غير الحق من حديث أو شعر . ولكن النقاد من أهل الحديث ومن أهل الأدب لم يكونوا غافلين، ونرى المؤلف نفسه يحكى ما كان يفعله ابن هشام راوى سيرة ابن اسحق حيث يقول بعد أن يروى قطعة الشعر التى يذكرها ابن اسحق : وأهل العلم بالشعر ينكرون له . فـلم يكن اذاً هؤلاء القصاص بمرتـع خصب يبيح لهم أن يقولوا مايشاؤون وينشروه فى الناس ، من غير أن يكون عليهم رقيب يظهر للناس عوارهم ويرد عليهم ماربما ابتدعوه أوابتدع لهم من حديث أو شعر ظهر من ذلك أن هؤلاء القصاص كانوا أعجز من أن يخـدعوا عا

الآداب العربية ويثبتوا فيهم شعرا محدثا على أنه شعر جاهلى . على أن الذى يستكثر الأستاذ من ذكره ، وهو الأشعار التى زعموها قيلت فى الغزوات بدر وأحد وغيرها ، ليس من الشعر الجاهلى فى شئ ، وانما هو شعر قيل انه صدر فى العهد الاسلامى ، والذى وضع الكتاب له غير ذلك .

وقد ذكر المؤلف نفسه ما كان من نقدة الآداب أمام هذا الشعر فقال : « وقد فطن العلماء الى مافى هذا الشعر من تكلف حينا ومن سخف واسفاف حينا آخر ، وفطن الى أن بعض هذا الشعر يستحيل أن يكون قد صدر عن الذين ينسب اليهم » ، وهذا هو الذى نريد أن نقوله ، وهو أن النقاد فى العصور الماضية لم يقصروا فى تمييز طيب الشعر من خبيثه ، وقد عبدوا الطريق لمن يخلفهم حتى لايزعجهم كذب كاذب أو تلفيق ملفق فيرفضون جميع ماروى من الشعر ،كما فعل مؤلف الشعر الجاهلى ، بل يتبعون سيرة أولئك الأسلاف فى النقد الادبى الذى أساسه الرواية والدراية اللذين شرحناهما قبل .

انتقل المؤلف الى سبب رابع من أسباب الانتحال ، وهم الشعوبية . وهؤلاء قوم لم يكونوا يرون للعرب فضلا عليهم ، بل كانوا يرون الناس سواسية فى نظر الاسلام كما قال الله تعالى:« ان أكرمكم عند الله أتقاكم »، وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لافضل لعربى على عجمى الا بالتقوى » . وهذا الرأى كان من الطبيعى أن يظهر أمام العجرفة التى كان يظهرها بعض الولاة من العرب ، وأمام الكبرياء التى كانت سمة لكثير

من جفاة الأعـراب حينما اتصلوا بالعناصر التى لها أصول تاريخية مجيدة، وأعظمهم أهل فارس .وقد ظهر هذا المذهب فى أواخر الدولة الأموية ، وانتشر كثيرا فى صدر الدولة العباسية التى قامت على أكتاف رجال من أهل فارس يقودها بطلها العظيم أبو مسلم الخراسانى .ولم نزل فى انتشار حتى كانت له العاقبة فساد فى الدولة بل صار هو المدبر لأمرها .

والذى كان يعتمد عليـه أصحاب هذا الرأى فى تأييده هو روح الاسلام التى أشرنا اليها ، من جهـة ، وعلى ما امتازوا به فى أنفسهم من الشجاعة والحضارة من جهة ثانية ، وعلى مالهم من القدمة فى السيادة ، من جهة ثالثة . ولم تكن هذه الجهة الثالثة بالأمر المنكور عند الناس، فقد كان معروفا عندهم من أمر جاهليتهم أن الفرس كانت لهم السيادة على جزء كبير من البلاد والأمم العربية ، وكان معروفا أن كثيرا من وفود العرب وشعراء العرب تفد الى الملك الذى أقامه كسرى عـلى بلاد الحيرة فتمدحه بالشعر وتأخذ منه الصلات، كما كان يفعل النابغة وغيره، وكانوا يفدون على كسرى نفسه، وكانوا يفدون على ملوك اليمن الذين هم تابعون لكسرى أيضا ... كل ذلك معروف غير منكر، وأنه لم يضع من سيادة الفرس الا قوة الاسلام ، فهل الفارسيون بعد ذلك كله فى حاجة الى أن يختلقوا شعرا ينسبونه الى عربى من الجاهلية يشيد فيـه بذكر أسلافهم ويثنى عليهم ؟؟ .. ان المؤلف نفسه قـد جعل هذه الأمور مما لايستطاع انكاره ، ومتى كان الأمر كذلك ضعف مقـدار هذا التخيل وسقط الفرض من أساسه .

انتقل المؤلف بعد ذلك الى سبب آخر من أسباب انتحال الشعر ،وهم الرواة ، واقتصر منهم على رجلين حماد الراوية وخلف الأحمر.

وانى أسأله سؤالين :

أما أولهما ، فانه جعل من الأدلة على سقوط رواية حماد أنه ثبت كذبه فى الرواية للمهدى وأمر حاجبه فأعلن فى الناس أنه يبطل رواية حماد ، ونص الاعلان الذى أعلنه الحاجب « يامعشر من حضر من أهل العلم ، ان أمير المؤمنين يعلمكم أنه قد وصل حماداً الشاعر بعشرين ألف درهم لجودة شعره وأبطل روايته لزيادته فى أشعار الناس ماليس منها، ووصل المفضل بخمسين ألفا لصدقه وصحة روايته.. فمن أراد أن يسمع شعرا جيدا محدثا فليسمع من حماد ، ومن أراد رواية صحيحة فليأخذها عن المفضل » .... هذا هو اعلان المهدى ، واذا كان عندك بهذا الموضع وهو موضع الدليل على تجريح حماد، فلم لايكون عندك دليلا على تعديل المفضل الضبى وهو من خيرة أهل الكوفة كما تقول ؟ المفضل هو راوى المفضليات ، وهى مجموعة قيمة من الشعر الجاهلى ، يجب عليك أن تعترف بهذه المجموعة ، لأن المهدى عدل صاحبها ووثقه ، ونحن معك فى رد ماانفرد حماد بروايته ، ولا يمكنك أن تدعى أن المفضل روى من طريق حماد ، لانهما قرينان وكان المفضل يتهم حماداً ولا يثق به ... أليس هذا القول حقا ؟ أم يجوز من الوجهة العلمية أن تأخذ نصف الحكم فتجعله دليلا على ماتريد ، وتكتم النصف الآخر لأنه لايطابق هواك ؟!

وأما السؤال الثانى ،فانك جعلت خلفا مع حماد فى قرن ،وجعلت ابن سلام حكما، وأنا معك فى الاحتكام اليه ، قال ابن سلام فى صفة خلف:«أجمع

أصحابنا أنه كان أفرس الناس ببيت شعر وأصدقه لسانا ، كنا لانبالى اذا أخذنا عنه خبرا أو أنشدنا شعرا ألا نسمعه من صاحبه » هذه عبارة ابن سلام صدرها بجملة « كان أفرس الناس ببيت شعر »، وهى جملة تحتمل معنى قريبا وهو القدرة على نقد الشعر وتميز طيبه من خبيثه ، وتحتمل معنى آخر بعيدا وهو القدرة على الاختلاق والوضع ، فجاءت بقية كلام ابن سلام محددة للمعنى المطلوب وهو قوله : « وأصدقه لسانا كنا لانبالى اذا أخذنا عنه خبرا أو أنشدنا شعرا ألا نسمعه من صاحبه » . فهل العلم أيضا ياسيدى هو الذى أجاز لك أن تقول :« وأما خلف فكلام الناس فى كذبه كثير ، وابن سلام ينبئنا بأنه كان أفرس الناس ببيت شعر »، وتقتصر على تلك الجملة التى ربما كان فيها بعض الاحتمال ، وتترك من عبارة ابن سلام مايرفع هذا الاحتمال ويحدد المعنى المراد ؟ أليس هذا اسفافا الى درجة لاترضى لأهل العلم مهما غلب عليهم الهوى ؟ لقد كنت أربأ بك عن هذا كله !! ..

ضم الى هذين الراويين راوية ثالثا وهو أبو عمر الشيبانى وقال فيه: « وهناك راوية كوفى لم يكن أقل من صاحبيه فى الكذب والانتحال، كان يجمع شعر القبائل حتى اذا جمع شعر قبيلة كتب مصحفا بخطه ووضعه فى مسجد الكوفة ، ويقول خصومه انه كان ثقة لولا اسرافه فى شرب الخمر ، ويقولون انه جمع شعر سبعين قبيلة» ، هذا لفظ المؤلف الذى ساقه للدلالة على كذب أبى عمرو ، وقد حرف فيه ماشاء له الهوى! ونحن ننقل العبارة الصحيحة ونقارن بينها وبين ماقال ، ليرى الجمهور كيف يضل الهوى صاحبه !.. قال ابن خلكان فى ترجمة أبى عمرو : « وكان من الأئمة الأعلام

فى فنونه وهى اللغة والشعر وكان كثير الحديث كثير السماع ثقة .. وهو عند الخاصة من أهل العلم والرواية مشهور ، والذى قصر به عند العامة من أهل العلم أنه كان مشتهراً بشرب النبيذ » ثم قال : « وقال ولده عمرو : لما جمع أبى أشعار العرب ودونها كانت نيفا وثمانين قبيلة ، وكان كلما عمل قبيلة وأخرجها الى الناس كتب مصحفا وجعله بمسجد الكوفة . حتى كتب نيفا وثمانين مصحفا بخطه » ... هذه عبارة المتقدمين فى تحلية أبى عمرو ، وهى تدل على أن الخاصة لم يكونوا يترددون فى توثيقه. أما الذين لم يشتهر بينهم فهم العامة لأنه كان مشتهرا بشرب النبيذ . فذهب عن المؤلف كلمة خاصة وعامة واستبدل بهما كلمة الخصوم وأزال كلمة « لأنه كان مشتهرا بشرب النبيذ » واستبدل بها قوله « لولا اسرافه فى شرب الخمر » ، والاشتهار غير الاسراف ، والنبيذ غير الخمر فان النبيذ معروف عند أهل الكوفة ورأيهم فيه وفى حله معروف ، وقد بنى على ذلك أحد المجان من الشعراء نتيجته المعروفة فى قوله :

أحل العراقى النبيذ وشربه   وقال : حرامان المدامة السكر
وقال الحجازى : الشرابان واحد ،   فحلت لنا من بين قوليهما الخمر

والعراقى هنا الامام أبو حنيفة رحمه الله ، فانه كان يقول بحل النبيذ الذى لم يكن متخذا من العنب ، ولا يحرم منه الا ما أسكر . والاشتهار بالشىء كما قلنا غير الاسراف فيه ، فرب كأس يشربها عالم من العلماء تكون سببا لشهرته وبلائه على وجه الدهر ! أما الاسراف فهو معروف . على أن اشتهار أبى عمرو بهذا لم يكن له أثر الا عند العامة . أما الخاصة فلا ، لأنه ليس من اللازم فى نظرهم أن من شرب النبيذ يكون كاذبا فى

قوله وروايته .

ان الاستاذ يريد التجريح فقط ! فماذا عليه اذا أبدل لفظا بلفظ مادام فى ذلك مصلحة، وهى الوصول الى الغرض ولو كان فيه ظلم البرىء والقضاء على الميت ! ... قال فى هؤلاء الأعلام ماشاءت الآداب الجديدة فى الجامعة المصرية ! من وصفهم بالكذب والفسق وفساد المروءة! وهى أقوال يتحمل تبعتها أمام الله وأمام التاريخ الذى يريد افساده ! . .

عزّ عليه أن يخرج من ميدان الكذب أحد من الرواة ! فعرض لامام كبير وقارىء عظيم ،وهو أبو عمرو بن العلاء الذى أجمع الجمهور على توثيقه، ولكنه جرحه بأن نسب اليه أنه زاد فى قصيدة الأعشى العينية قوله :

وانكرتنى وما كان الذى نكرت من الحوادث الا الشيب والصلعا

والبيت موجود فى جملة أبيات للأعشى ،وهى أبيات مشهورة، ورواية اعتراف أبى عمرو بوضع هذا البيت يحوم حولها الشك لأنها مروية عن أبى عبيدة ، فانه يقول:«سمعت بشارا يقول وقد أنشدنى فى شعر الأعشى: وأنكرتنى.. الخ، فأنكره وقال : هذا بيت مصنوع مايشبه كلام الأعشى، فعجبت لذلك ... فلما كان بعد هذا بعشر سنين كنت جالسا عند يونس ، فقال : حدثنى أبو عمرو بن العلاء أنه صنع هذا البيت وأدخله فى شعر الأعشى : فجعلت حينئذ أزداد عجبا من فطنة بشار وصحة قريحته وجودة نقده للشعر » ... ذكر ذلك صاحب الأغانى فى الجزء الثالث ص ٢٣ ، وقد قدم مؤلف الشعر الجاهلى فى ص ١١٤ ما وصف به أباعبيدة ،ولايجوز أن يكون عنده بهذا الموضع ويعتمد على روايته فى تجريح أبى عمرو بن

العلاء ونسبة اعترافه بوضع هذا البيت الى يونس ، ولكن المؤلف يرى أن كل عبارة فيها جرح لراو مقبولة مهما كان ضعف الجارح وقوة المجروح! ومن الغريب أنه يضع عبارته فى الشكل الذى يريده وهو قوله : « فأبو عمرو بن العلاء يعترف بأنه وضع على الأعشى بيتا » !! كأن هذه العبارة لاشك فيها ولاتحتمل ترددا مهما كان راويها !!

أما أنه كان من بعض الأعراب وضع لشئ من الشعر، فان الشيخ لاينسى أنه يروى ذلك من طريق ابن سلام عن أبى عبيدة الذى قال فيه فى ص ١١٤ انه كان أشد الناس بغضا للعرب وازدراء لهم ، وهو الذى وضع كتابا لانعرف الآن الا اسمه وهو « مثالب العرب »... فرجل هذا شأنه عند المؤلف، كيف يجعله سندا يعتمد عليه فى تجريح الرواة من العرب؟ أليس الرجل معنيا بذكر المثالب وتدوينها فى كتبه ؟ أمثل هذا يعتبر حجة اذا اتهم من يبغضهم ويزدريهم بالكذب ؟ترد أنت روايته وتسقط عدالته ،ثم تتخذه حجة لتجريح غيره ؟

أظن أنى قد بلغت ماأردت من اظهار مافى هذين الكتابين . من خطأ فى الاستنباط . وخطأ فى النقل ، وتحامل على سلف الأمة ورواتها، وهم الذين بذلوا أعظم مجهود فى سبيل الآداب العربية وتخليصها ونقدها. وأول ماأوصى به الأستاذ أن يتحرى فى نقله وألا يغلو فى قوله ، وأن يراجع الحق فان مراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل ؟

المحاضرة الثالثة

فى الكتاب الثالث من الشعر الجاهلى نقد تفصيلى لبعض شعراء الجاهلية ، والحكم عليه بأنه كان منحولا ، ولم يكن المؤلف فى هذا النقد التفصيلى أدنى الى التوفيق منه فى النقد الاجمالى .

شرع فى الفصل الأول منه يخاطب أنصار القديم من سماء التحقيق العلمى ، مزدريا بهم وبما يتخيله صادرا عنهم من أقوال وآراء . ولا تعنينا مناقشة هذا الفصل ، اتباعا لمنهجنا الذى شرحناه فى صدر المحاضرة الأولى. وليعلم سيدى الأستاذ أن أنصار القديم ليسوا أقل منه عناية ، وكلنا يطلب الحق والوصول اليه ، وكثيرا ما رد أسلافهم أشياء مما رويت لهم بعد أن محصوها تمحيص من لاغاية له الا الحق ، ونحن نحب السير فى ذلك على آثارهم ، لانزعم أنه لم يفتهم شئ ، كلا ! فان مهمتهم كانت شاقة ، وقد قاموا رحمهم الله بالواجب عليهم بعيدين عن الأهواء والأغراض . اذاً نمر بهذا الفصل دون أن نأبه بصحفه السبعة ، لأنها لاقيمة لها من الوجهة العلمية الصحيحة .

ذكر المؤلف فى الفصل الثانى ثلاثة من الشعراء ، وهم امرؤ القيس وعبيد وعلقمة :

أما أولهم ، فان الشيخ سلم بوجوده حيث قال عن ذلك : « ونحن نرجح ذلك ونكاد نوقن به » ، ولا أدرى ما المصدر الذى اعتمد عليه فى ذلك وجعله عنده قريبا من اليقين ؟

ثم قال عن كندة التى ينتسب امرؤ القيس اليها : « ولكنهم —

الرواة — يتفقون على أنها قبيلة يمانية » ، ودعوى الاتفاق هذه خطأ، فقد قدمنا فى المحاضرة الأولى مايفيد أن من الرواة من يقول ان كندة من عدنان لامن قحطان ، وأحلنا القارئ على كتاب الأغانى ، وأرانى مضطرا هنا الى ذكر عبارة الأغانى حتى يعلم الأستاذ أنه كثيرا مايرسل قضاياه ارسالا قبل أن يفرغ من بحثها . قال أبو الفرج فى ص ١٦٠ من الجزء الحادى عشر فى أخبار خزيمة بن نهد : « كان بدء تفرق ولد اسمعيل بن ابراهيم عن تهامة ونزوعهم عنها الى الآفاق وخروج من خرج منهم عن نسبه أنه كان أول من ظعن عنها وأخرج منها قضاعة بن معد » ، ثم قال : « وهى يومئذ تنتسب فتقول كندة بن جنادة بن معد » ، وقال : « وكانت كندة تسكن من الغمر الى ذات عرق ، فهو الى اليوم يسمى غمر ذى كندة ، واياه عنى عمر بن أبى ربيعة بقوله :

اذا سلكت غمر ذى كندة مع الصبح قصد لها الفرقد
هنالك اما تعزى الهوى واما على آثارهم تكمد .. »

فأين الاتفاق الذى تزعمه ؟ أتصمم بعد ذلك على أن الرواة متفقون على أن كندة قبيلة يمانية ؟ ومع أنك تعتز بما تزعمه من اتفاق الرواة هنا لأنه يقرب اليك طريق هواك، فقد طعنت فى هذا الاتفاق حينما رأيته يبعد عليك هذا الطريق ! وليس بين الموضعين أكثر من صفحة ! فانك تقول بعد ذكر ماقيل عن اسم امرئ القيس وكنيته واسم أمه : « على هذا اتفقت كثرة الرواة ، واذا اتفقت الكثرة على شئ فيجب أن يكون صحيحا ، أو على أقل تقدير يجب أن يكون راجحا . أما أنا فقد أطمئن الى آراء الكثرة ، أو قد أرانى مكرها على الاطمئنان

لآراء الكثرة فى المجالس النيابية ومايشبهها ، ولكن الكثرة فى العلم لاتغنى شيئا ، فقد كانت كثرة العلماء تنكر كروية الأرض وحركتها .

وظهر بعد ذلك أن الكثرة كانت مخطئة ، وكانت كثرة العلماء ترى كل ما أثبت العلم الحديث أنه غير صحيح ، فالكثرة فى العلم لاتغنى شيئا » .

ان سلفنا من العلماء لما تكلموا فى مسائل التواتر وشهادة الاجماع ، لم يفتهم أن يقولوا ان الشهادة المتواترة والآراء الاجماعية فى مسائل العلوم لاتعد حجة ، وانما التواتر حجة فى الأمور المحسوسة التى يخبر كل شاهد أنه أدركها بحسه من بصر أو سمع ، وكذلك اجماع العلماء انما يكون حجة فى الأحكام الشرعية التى تستنبط من الكتاب أو السنة ، أما الاجماع على قضية علمية ، كالقول بوقوف الأرض أو تحركها ، والقول ببساطة الماء أو تركبه ، فانه لايكون حجة . كل هذا شئ قرره العلماء ووضحوه ، فليس فى هذه النظرية شئ أظهرته رؤيتك ، ولكنك شبه عليك فأردت أن تجعل هذه القضايا التى تتحدث عنها من القضايا العلمية التى لاسبيل الى ادراك حقائقها الا بمقدمات علمية تقام البراهين على صدقها ! وأنت مخطئ فى ذلك ، فان هذه قضايا خبرية ، لاسبيل الى الاطمئنان الى صحتها الا من طريق الرواية وحدها . فاذا قال قائل : ان امرأ القيس رجل وجد فى جزيرة العرب ، وكان شاعرا ، وكان من خبره كيت وكيت ... فما الذى يستند اليه فى تصحيح ذلك ؟ هل هناك مقدمات علمية يستند اليها كما لو قال ان الارض تدور حول الشمس أو بالعكس ؟ اللهم لا ! وغاية مايقفه العقل أمام هذه الأخبار أن يستوثق من الرواة ، وأن ينظر الخبر فى ذاته : أفيه

شئ يخالف العقل أو العادة ، فان كان الراوى غير موثوق به، أوكان فى الخبر مخالفة لما ذكر ، فانى أتوقف فى قبوله أو رفضه أوأرفضه طبقا لنوع المخالفة .

فرق ياسيدى بين قضايا العلوم وقضايا الأخبار : قضايا العلوم كليات ، وهذه جزئيات لادليل عليها الا أخبار الناس أو كتاباتهم ، ولكل من النوعين منحى فى بحثه .فلا تكثر من التغنى بالعلم وقضاياه !

وهنا أنوه بذكر بحث لطيف هو خير ماقرأته فى مناقشة المؤلف فى هذه النقطة ، رأيته فى جريدة البلاغ لشاب لم أتشرف بعد بمعرفته ، وهو محمد أحمد الغمراوى أفندى ، وألفت نظر مؤلفنا الى قراءة الفصلين الخاصين بهذه النقطة ففيهما خير كثير .

يرى الاستاذ من ضمن فروضه أن المركز الذى وصلت اليه كندة فى الاسلام هو الذى أثار قصص امرئ القيس ، ولماذا ؟ لأن حياة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث تشبه حياة امرئ القيس ، فاذا كان هناك تشابه بين حياتى رجلين جاهلى واسلامى ، فان حكاية الأول منتزعة من حكاية الثانى ! . .

عبد الرحمن بن محمد ثائر على أمير من أمراء الطغيان والاستبداد ، وهو الحجاج بن يوسف . لم يكن عبد الرحمن من المغمورين ، وانما كان ينتهى نسبه الى كندة التى لها سابقة وقدمة غير منكورة ، ولآبائه تاريخ معروف ، وكان له شعراء يشيدون بذكره ويكثرون من مدحه بقصائد منسوبة اليهم ينشدونها بين الأسمطة والصفوف وتناقلها عنهم الرواة فيستمعها الحجاج نفسه ويحفظ منها مايحفظ . ومثل هذا ليس فى حاجة

الى أن يخترع القصاص لواحد من قومه حكاية لاتدل على عظمة ولا فخار !.. وما حديث امرئ القيس الا أنه رجل قتل أبوه فقام يثأر له ففشل فشلا قبيحا وصار يتنقل فى القبائل يريد المعونة فلم يجدها ، وانتهى أمره بأن مات شريدا بعيدا عن وطنه وأهله. واذا كان هناك وضع ، فلأن يكون من خصوم كندة أقرب الى النفس من أن يكون من أوليائها ، لأن هذا الحديث لا يرفع من شأنها ، لأن أولياءها لا يضعون حديثا مغزاه التنبؤ بمستقبل أسود لعبد الرحمن وهو الثورة فالفشل فالشرود فالهلاك ... بذلك ترى ياسيدى أن الفرض الذى فرضته لاقيمة له . ولا يتفق مع تاريخ ولا علم ، وتتبين أن مارأيته يسيرا ليس باليسير .

يقول المؤلف استرواحا الى صاحب الأغانى عندما يذكر خبرا فيه مصلحة له : « فصاحب الأغانى يحدثنا أن القصيدة القافية التى تضاف الى امرئ القيس على أنه قالها يمدح بها السموءل حين لجأ اليه منحولة نحلها دارم بن عقال وهو من ولد السموءل » ، وليته نقل عبارة أبى الفرج صحيحة ، ولكنه أبى الا تحريفا معيبا ليس من شأن العلماء فى شئ ! وها نحن أولاء نسوق الى القراء ذلك النص ليقارنوا بين تواضع المتقدمين فى علمهم وغطرسة المحدثين فى تسرعهم !..

قال أبو الفرج بعد أن ذكر أول بيت من هذه القصيدة القافية : « وهى قصيدة طويلة أظنها منحولة ، لأنها لاتشاكل كلام امرئ القيس ، والتوليد فيها بين ، وما دونها فى ديوانه أحد من الثقات ، وأشبهها مما صنعه دارم لأنه من ولد السموءل ، أو مما صنعه من روى عنه ذلك ، فلم تكتب هنا » .

فأنت ترى أنه شك فى القصيدة من جهتين : الأولى الرواية ، فانه لم يدونها فى ديوان امرئ القيس أحد من الثقات ، والثانية الدراية ، فانها لاتشاكل كلام امرئ القيس والتوليد فيها بين ... ثم فرض فرضا أنها من وضع دارم بن عقال لأنه من ولد السموءل ، ولم يجزم بذلك ، بل تردد بين أن يكون هو الواضع أو أحد ممن روى عنه . وهذا كله مفهوم معقول ، فانظر بعد ذلك الى المؤلف : كيف تصرف أولا فيما نقل عن أبى الفرج ، لأنه لايريد الاعتراف ببعض مافيها من أن هنالك رواة ثقات يرجع اليهم . وكيف قال ثانيا : « وأكبر ظننا أن دارم بن عقال لم ينحل القصيدة وحدها وانما نحل القصة كلها وانتحل مايتصل بها أيضا ، نحل قصة السموءل الذى قتل بمنظر من أبيه حين أبى تسليم أسلحة امرئ القيس ، نحل قصة الأعشى الذى استجار بشريح بن السموءل وقال فيه هذا الشعر المشهور كله » ... لم هذا كله ؟ ومم كان أكبر ظنك ؟ أبو الفرج احتج بالرواية والدراية ، وأنت تضرب ذات اليمين وذات اليسار على غير هدى ، فليس بيدك حجة تستند اليها ، ولا يمكنك أن تقول ان قطعة الأعشى لاتشاكل كلام الأعشى والتوليد فيها بين ، اذ أنها من جيد الشعر وبارعه !.. على أننا نظن أنك لاتعرف بشئ من كلام الأعشى يحتج بمشاكلته أو عدم مشاكلته ، ومن أجل ذلك حذفت من قول أبى الفرج « لأنها لاتشاكل كلام امرئ القيس » لأنك لاتريد الاقرار على أن لامرئ القيس كلاما يشاكل أو لا يشاكل .

تعجب من أن امرأ القيس لم يقل شيئا فى وصف مارأى فى القسطنطينية من قصور وكنائس وفتيات ، وتعده دليلا على أنه لم

يزرها ! وأنت تعلم أن الرجل لم يعش بعد أن وردها، ولم يكن مع خيبة أمله بالذى يفرغ لقول الشعر ووصف المظاهر الرومية ، ولو كان الأمر راجعا الى القصاص كما تفرض ، وهم الذين قالوا هذا الشعر كله ، ما أعجزهم أن يقولوا أبياتا يسدون بها هذا النقص الذى تخيلته .

ثم ماذا ترى اذا علمت أن كتاب الروم أنفسهم ذكروا أحاديث هذا الرجل فى نتبهم ! ونحن ننقل لك عن كتاب شعراء النصرانية ، قال فى ص ٣٥ من الجزء الأول :

« وقد جاء ذكر امرئ القيس فى تواريخ الروم ، مثل نوروز وبروكوب وغيرهما ، وهم يسمونه قيسا ، وقد ذكروا أنه قبل وروده على قيصر يوستيانس أرسل اليه وفدا يطلب منه النجدة على بنى أسد وعلى المنذر ملك العراق » ، ثم قال ناقلا عن هؤلاء المؤرخين : « ان امرأ القيس لم يلبث أن سار بنفسه الى قسطنطينية ، فرغبه قيصر ووعده . وقد ذكر نوروز المؤرخ أن يوستيانس قلده امرة فلسطين ، الا أنه لم يسع فى اصلاح أمره واعادة ملكه.فضجر امرؤ القيس وعاد الى بلده ، وكانت وفاته سنة٥٦٥ ، أصابه مرض كالجدرى فى طريقه كان سبب موته . وذكر فى كتاب قديم مخطوط « أن ملك قسطنطينية لما بلغه وفاة امرئ القيس أمر بأن ينحت له تمثال وينصب على ضريحه ، ففعلوا ، وكان تمثال امرئ القيس هناك الى أيام المأمون ، وقد شاهده هذا الخليفة عند مروره هناك لما دخل البلاد ليغزو الصائفة » ... وهذه النصوص ترجح ماذكره مؤرخو العرب من هذه القصة ، وتدل أيضا على أن امرأ القيس عاش فى القرن السادس ،

وتسقط فرضك الذى عبرت عنه بقولك : «والذى نرى نحن أنه عاش قبل القرن السادس وربما عاش قبل القرن الخامس» لأنه من المعلوم أن يوستيانس ملك سنة ٥٢٧ ومات سنة ٥٦٥ ، وبروكوب كان مؤرخ دولته ومعاصره. على أنك فى تعبيرك عن فرضك مضطرب، فانك صدرته بكلمة «نرى» وهـذا يدل على أن عندك ترجيحا منشؤه الدليل ، ثم قلت : « وربما عاش قبل القرن الخامس » ، وهذا يدل على الشك لعدم الدليل ، وهذا اضطراب لايجمل بأولى العلم .

وعجبك من أنه لم يؤثر عن امرئ القيس شئ فى وصف معالم القسطنطينية، يشبه عجبك من أنه لم يؤثر عنه شئ فيما كان بين خاله مهلهل التغلبى وبين قبائل بكر من الوقائع ! وليس فى هذا مايدعو الى العجب ! تلك وقائع لم يشهدها وليس لقومه فيها من أثر ، فمن اليسير أن تفهم أنه لايقول فيها شيئا . على أنك قـدمت أنك مقتنع بأن كثيرا من الشعر الجاهلى قدضاع ، مستندا الى عبارة أبى عمرو بن العلاء ، ونحن معك فى هـذا ، فلم لاتجيب سؤالك بأنه ربما يكون امرؤ القيس قد قال فى ذلك شيئا وضاع ؟.. لايريد منك أحـد أن تؤمن وتطمئن الى كل مايتحدث به القدماء عن امرئ القيس ، بل يبيحون لك أن تنقد مايروى ولكن على شرط أن يكون النقد بعيـدا عن هـذا الغلو الذى اتبعت نهجـه ، ولا تكون محكما لهواك فتأخـذ من الأخبار مايرضى تخيلاتك وترفض منها مالا يتفق وهواك !! .. وقد رأينـاك فى كتابك هذا لاتكلف نفسك اثبات نص تريد الاستناد اليه ، بل تشكله بالشكل الذى يساعدك ! ولم نرك جئت بنص كامل الا فى حديث أبى بكر بن الحرث بن هشام لأن

فيه ماتراه تكأة لك من اعتراف صاحبه بأنه مفتر كذاب، وبأن رجلا عظيما من عظماء المسلمين طلب منه أن يكون كذلك . . واذا كانت التقوى مطلوبة فى شئ فهى فى العلم أولى .

لما شرع الأستاذ فى النقد التفصيلى كان فاترا، ولم نكن نظن أن يكون هذا منه فى مقام الجد . وكان من أدلة فتورة عودته الى حديث اليمنية والقرشية الذى تحدث عنه فى الكتاب الأول وأجبنا نحن عنه فى المحاضرة الأولى ، فلم يكن هناك محل لاعادته . يقول بأن فى كلمة امرىء القيس « قفا نبك » أبياتا شك القدماء فى صحتها ، ونحن نقول له ان هذا من الأدلة على أنهم ما كانوا يؤمنون ايمانا بكل مايروى لهم ، بل كانوا يحتاطون ويشكون .

اتخذ المستشرقون من اختلاف الرواة فى ترتيب بعض الأبيات وفى بعض الكلمات دليلا على صحة مارأوه فى الشعر العربى كافة ، واتخذته أنت دليلا فى الجاهلى منه من «أنه غير متسق ولا مؤتلف ، وأن الوحدة لا وجود لها فى القصيدة ، وأن الشخصية الشعرية لا وجود لها فى القصيدة أيضا ، وأنك تستطيع أن تقدم وتؤخر وأن تضيف الى الشاعر شعر غيره دون أن تجد فى ذلك حرجا أو جناحا مادمت لم تخل بالوزن ولا بالقافية » .

ان المستشرقين فى هذا المقام أحكم منك ، لانهم قامت لهم شبهة رأوها فى الشعر الاسلامى كما رأوها فى الشعر الجاهلى ، فعموا الشعر كله بما وصفوه به ... أما أنت فاتخذت مقاما مترددا يفرق بين الشعرين ، فزعمت أن الشعر الاسلامى وحدة القصيدة فيه ليست أقل ظهورا منها فى أى شعر أجنبى ، وأن الشعر الجاهلى هو على ماوصفه به المستشرقون ...

ولم ذلك ؟ لأن كثرته منتحله مصطنعة .. ولم تدر أنك أقمت البرهان على نفسك ! لأن الشعر الجاهلى اذا كان منتحلا مصطنعا اصطنعه الاسلاميون ، فما الذى كان يدعوهم الى أن يصطنعوه مضطربا لاوحدة للقصيدة منه ، خاليا من الشخصية الشعرية على خلاف ما ألفوا من قول الشعر ؟ أما كان المعقول والقريب الى النفس أن يصطنعوه على نحو ما كانوا يقولون ؟ واذا كانت قصيدة امرىء القيس مصطنعة ، فقد اصطنعت على رأيك فى الوقت الذى دون فيه الشعر فى الصحف ، والذى اصطنعها لابد أن يكون من المهرة القادرين على صوغ الشعر ، وهو واحد ، أفما كان من الواضح أن يدونها ويرسلها فى الناس واضحة جلية ، يروونها عنه مدونة ، فلا يكون فيها بيت مختلف فيه ، ولا اضطراب فى ترتيب أبياتها ، كما ترى ذلك فى قصيدة :

ان بالشعب الذى دون سلع لقتيلا دمه مايطل

التى رويت سليمة من كل العيوب التى ذكرتها ، ويقال انها مصنوعة فى الاسلام !؟..

نحن لاننكر أن فى بعض الشعر الجاهلى اضطرابا ، وذلك ناشئ من طبيعة روايته ، فقد كان الراوون له من رواة العرب انما يعتمدون على حافظتهم ، ولم يكن التدوين قد بدأ فى عهدهم ، فمن البديهى أن ينشأ من ذلك تقديم بيت على آخر أو نقص بيت أو ماشاكل ذلك .

وأما الوحدة فى القصيدة ، فان ذلك لم يكن من شأن العرب فى جاهليتهم ، بل كانوا فى أغلب الأحيان يشيدون أولا بذكر النساء ، وقد كن المرجع الأعلى فى الاستحسان والاستهجان ، وعلى رضاهن وغضبهن

تتوقف سعادة الشاعر وشقاؤه،.. ثم يتبعون ذلك بوصف نوقهم وماتدنيه من مقاصدهم ،وقد كانت هى عمادهم ، وقد يصفون الخيل أيضا ثم يتبعون ذلك بالغرض الذى يريدون ،.. ولم نر هذه الوحـدة الا عند قليل منهم كعدى بن زيد .

ولم تتغير هذه الحال فى الشعر الاسلامى فى القرن الأول من الهجرة، بل انك اذا قارنت بين كثير من الشعراء فى عهـد الخلفاء وعهد بنى أمية وبين الشعراء الجاهليين لا تجد من هذه الجهة فرقا ،وكما شذ من العرب بعض شعرائهم شذ من الاسلاميين بعض شعرائهم فى توحيـد المقصد فى الشعر .

وأما شخصية الشاعر فانها كانت تظهر فى ألفاظه وفى أساليبـه وأخيلته ، وترى هذا المعنى واضحا فى الشعراء الجاهليين . ومن هـذا ترى أن المستشرقين الذين ذكرتهم ان كانوا أخطأوا مرة فقد أخطأت مرتين وأخطأت فى استنباطك من هذا الاضطراب أن الشعر الجاهلى مصطنع وهو أولى بأن يكون دليلا على عكس ماتقول !!

تقول ان وصف اللهو والعذارى وما فيه من فحش أشبه بأن يكون من انتحال الفرزدق منه بأن يكون جاهليا .. !

اذا كان الفرزدق قد عرف بنحو من الشعر ، فهل يجب أن يكون له مبتدعا لم يسبقه به امرؤ القيس ولا غيره ؟ وهل كان الفـرزدق من الرواة الذين يسرهم أن ينسب مايقولونه من الشعر الى غـيرهم ؟ كلا ! بل المعروف عنه أنه كان يقتنص شعر الشعراء من أهل عصره ومن سبقوه فيجعله فى شعره وينسبه الى نفسه .

وما يقال هنا يقال فى وصف امرئ القيس لخليلته ، وزيارته اياها، وتجشمه للوصول اليها،وتخوفها الفضيحةحين رأته ،وخروجهامعه،وتعفية آثارها بذيل مرطها، وما كان بينهما من لهو ... فاذا كان هذا يشبهمناحى عمر بن أبى ربيعة،فلا يمكن لعاقل أن يستنبط من ذلك أن مانسب الى امرئ القيس انما هو منحول لهذا التشابه ،لانه ليس من البعيد أن يتفق شاعران فى فن من الفنون الشعرية حتى من غير أن يقرأ أحدهما شعر الآخر ... كل مايقال من ذلك فروض هى الى الهزل أقرب منها الى الجد !

ومن أغرب مايقول المؤلف: « وأنت اذا قرأت قصيدة أو قصيدتين! من شعر عمر بن أبى ربيعة ،لم تكد تشك فى أن هـذا الفن فنه ابتكره ابتكارا واستغله استغلالا قويا وعرفت العرب له هذا » !..أنا أفهم أنى اذا قرأت قصيدة أو قصيدتين من شعر ابن أبى ربيعة لم أكد أشك فى أنه قد أجاد فى هذا الفن ، أما أنى أحكم بأنه مبتدعه بعد أن أقرأ قصيدتين منه ! فانى لا أرى محترما لعقول الناس يقوله !! لايمكن أن أحكم لشخص بابتكار فن الا اذا استقرأت شعر الشعراء قبله فلم أجد بينهم من يقول فى هذا الفن ، حتى اذا لم أجد ظننت أنه مبتكر، اذ يجوز أن يكون قد وجد شاعر لم يصل الى علمه ، فالحكم بالابتكار ليس نتيجة لقراءة شعر عمر كما تزعم !بل موقوف على القراءة والاستقراء .

يقبل الاستاذ أن امرأ القيس أول من قيد الأوابد وشبه الخيل بالقطا والعقبان وما الى ذلك ، ولكنه يشك أعظم الشك فى أن يكون قال هـذه الأبيات التى يرويها الرواة ! لم هـذه التفرقة ؟ لا أدرى ! كلا الأمرين وصل الينا من طريق النقل لا العلم ، أفتأخذ من المنقول بعضا

وترفض آخر من غير حجة بل بالهوى والتحكم !؟ واذا كان عندك طريق آخر غير طرق الناس علمت منه ماعلمت عن امرىء القيس ، أفما كان الواجب أن تذكره ؟

جزم الأستاذ بأن قصيدتى امرىء القيس وعلقمة منتحلتان ، وحجته فى ذلك رقة مفتتحهما ، وأنها رقة اسلامية ! ولو تأنى قليلا فى تفكيره لرأى من شعر الشعراء الذين لاشك فى اسلاميتهم مايعسر فهمه لغرابته ، كما يرى فى كلام رؤبة والعجاج وأبى النجم والكميت وغيرهم ، ولرأى فى شعر كثير من الجاهليين ماهو أسهل وأرق مما افتتحت به قصيدتا علقمة وامرىء القيس ، ولا نحتج عليه بأكثر من الشعر الذى سلمه لعلقمة ولا يمكن أن يدعى أنه قاله فى اسلامه ، لأن القصيدة البائية التى سلم نسبتها اليه بدون تحفظ انما قالها يمدح بها الحرث الوهاب سيد بنى غسان ملك الشام ، وقد كان قبل الاسلام ، ودليل أنه قالها فيه قوله :

« الى الحرث الوهاب أعملت ناقتى »

ويقول علقمة فى تلك القصيدة :

فان تسألونى بالنساء فاننى ... بصير بأدواء النساء طبيب
اذا شاب رأس المرء أوقل ماله ... فليس له في ودهن نصيب
يرون ثراء المال حيث علمنه ... وشرخ الشباب عندهن عجيب

وهذا كلام لاينقص فى سهولته ولينه عن قوله :

ذهبت من الهجران فى كل مذهب ... ولم يك حقا كل هذا التجنب

لم يمكنى أن أفهم قول الأستاذ : « بل أنت لا تجد فيهما شخصية ما » .. ! ماهذه الشخصية التى تريدها من الشاعر وتنفى وجودها ؟ انه تغزل أولا

كما يفعل العرب في اثنى عشر بيتا ، ثم وصف ناقته وصفا دقيقا فى ستة أبيات ، ثم وصف الفرس الذى يغتدى عليه الى الصيد وفعل الفرس فيه فى بقية الأبيات . وفى القصيدة التى سلمت صحتها تغزل فى عشرة أبيات ، ثم وصف ناقته التى توصله الى ممدوحه فى اثنى عشر بيتا ، ثم مدح الحرث بما بقى . فلم تشعر فى هذه القصيدة بشخصية للشاعر وتصحح نسبتها اليه ، ولا تشعر هذا الشعور فى البائية وتلح فى تكذيبها؟! والحق أن شخصية الشاعر انما تظهر كما قدمنا فى أسلوبه وفى أخيلته . ومن العسير أن تجد تمايزا فى الشخصيات بين شعراء الجاهلية .

يتشكك فى شخصية عبيد لما روى الرواة عنه من أحاديث لاتقبل التصديق ... أنا لاأنكر أن هناك أحاديث لاتقبل التصديق ، واذا كان ورود مثل ذلك فى تاريخ الأشخاص يدعونا الى انكار شخصياتهم وأعمالهم ، فانه يتحتم عليك أن تنكر كثيرا من عظام الناس الذين لاينكر أحد وجودهم ولا أعمالهم !.. وجد فى كل عصر من يؤرخون عظماء الرجال ، وقد يضعون أحاديث فى بدء نشأتهم تفيد اهتمام الكون بهم ، فهل يجرنا ذلك الى انكار الأعمال الجسام التى قام بها أولئك العظماء لأن الكذب اختلط ببدء نشأتهم ؟!

يروى صاحب الأغانى فى بدء شاعرية عبيد « أنه كان رجلا محتاجا وليس له مال ، فأقبل ذات يوم ومعه غنيمة له ، ومعه أخته ماوية ليوردا غنمهما ، فمنعه رجل من بنى مالك بن ثعلبه وجهه ، فانطلق حزينا مهموما للذى صنع به المالكى ، حتى أتى شجرات فاستظل تحتهن فنام هو وأخته ، فزعموا أن المالكى نظر اليه وأخته الى جنبه فقال :

ذاك عبيد قد أصاب ميا ياليته ألقحها صبيا
فحملت فوضعت ضاويا

فسمعه عبيد فرفع يديه ثم ابتهل فقال : اللهم ان كان فلان قد ظلمنى فأدلنى منه (أى اجعل لى منه دولة وانصرنى عليه) ، فنام ولم يكن قبل ذلك يقول الشعر ، فذكر أنه أتاه آت فى المنام بكبة من شعر حتى ألقاها فى فيه ثم قال له : قم ، فقام وهو يرتجز ، ثم استمر بعد ذلك فى الشعر ، وكان شاعر بنى أسد غير مدافع » ... فاذا صعب علينا أن نصدق تلك الحكاية التى قيلت فى مبدأ شاعرية عبيد، أيجب لأجل ذلك أن ننكر أنه كان شاعر بنى أسد غير مدافع ؟ ... قد روى صاحب الأغانى نفسه فى نشأة جرير قال : «رأت أم جرير وهى حامل به كأنها ولدت حبلا من شعر أسود ، فلما سقط منها جعل ينزو فيقع فى عنق هذا فيخنقه ، حتى فعل ذلك برجال كثيرة ، فانتبهت فزعة ، فأولت الرؤيا فقيل لها : تلدين غلاما شاعرا فى أشر وشدة وشكيمة وبلاء على الناس ، فلما ولدت سمته جريرا باسم الحبل الذى رأت أنه خرج منها » ، فهل صعوبة تصديق هذه الحكاية تدعونا الى انكار شخصية جرير وأنه كان شاعر بنى تميم غير مدافع ؟!

يقول الأستاذ فى استنكار القصيدة البائية لعلقمة : « وحسبك أنه يثبت فيها وحدانية الله وعلمه على نحو مايثبتهما القرآن فيقول :

والله ليس له شريك علام ما أخفت القلوب ... »

كأن الأستاذ يرى أن الأمة العربية قبل الاسلام خلت من أناس كانوا موحدين غير راضين عن الوثنية التى كانت منتشرة اذ ذاك بينهم ، وهذا مخالف لما أطبق عليه المؤرخون ، فقد كان بينهم اليهود وهم

موحدون ،ولم يكن هذا التوحيد سرا من أسرار دينهم ... أفلا ترى من المعقول اليسير أن تتسرب فكرة التوحيد منهم الى بعض المفكرين من العرب ، فيستريحون اليها ويعتقدونها فى شعرهم ؟ نعم ، ان ذلك لسهل ، ولكنه لايتفق مع هواك ،فتجعل وجود مثله فى قصيدة دليلا على أنها مصنوعة فى العهد الاسلامى ! !

كل المقدمات التى استعان بها المؤلف على أن ينفى شعر امرى القيس وعبيد وعلقمة لاقيمة لها فلا تنتج شيئا ،وفروضه التى فرضها فى أسباب اصطناع هذا الشعر ونسبته اليهم فروض لامؤيد لها من العلم ولا من التاريخ .

تعرض فى الفصل الثالث لعمرو بن قميئة ومهلهل وجليلة :

بعد أن ذكر ماقالته الرواة عن عمرو بن قميئة ورحلته مع امرئ القيس ،وما قاله بن سلام من أن بنى أقيش كانوا يدعون بعض شعر امرئ القيس وليس ذلك بشئ ،قال المؤلف: « وفى الحق أن هذا ليس بشئ ، فان هذا الشعر لايمكن أن يكون لعمرو بن قميئة كما لايمكن أن يكون لامرئ القيس ،فهو شعر محدث محمول » ! وهنا نستنجد برهة بالتحقيق العلمى الذى زعمه المؤلف لنفسه فنسأله: أية المقدمات أنتجت لك هذا وأنت لم تذكر من ذلك شيئا لامن طريق رواية ولا من طريق دراية ؟ فانك لم تزد أن أخذت عبارة ابن سلام فهزئت بها وسخرت منها وعكستها عليه ! ومتى كان الهزؤ والسخرية كافيين للانتاج ؟ ومتى كان التحقيق العلمى يستقيم على هذا ؟

من غريب أمر استنتاجه أنه يقول مانصه: « فهم يزعمون أن أول

من قصد القصائد مهلهل بن ربيعة خال امرئ القيس ، وكأن امرأ القيس انما جاءه الشعر من قبل أمه، ومعنى ذلك أن الشعر عدنانى لاقحطانى ، ومن هنا نشأت نظرية أخرى تزعم أن الشعر يمانى كله بدئ بامرئ القيس فى الجاهليـة وختم بأبى نواس فى الاسلام » . . . نظرة يسيرة تبين للقارئ أن الشيخ استنتج من مقدمته خلاف ماتنتج ! اذ كيف تنشأ نظرية أن الشعر يمانى كلـه من قوله : ان أول من قصد القصائد مهلهل ، وهو عدنانى من ربيعة ، وكأن امرأ القيس انمـا جاءه الشعر من قبل أمه ، ومعنى ذلك أن الشعر عدنانى لاقحطانى . . . ! !

يروى لك شيئا من شعر عمرو بن قميئة « لتلمس بيدك مافيه من سهولة ولين وتوليد » ! أنا أفهم أن يقول ابن سلام أو أبو الفـرج مثل هذا الكلام، لان عنده أسلوبا وطرازا استقرا فى نفسه من شعر الجاهلية بعيدين عن السهولة واللين، فاذا جاءه شعر نسب الى القدماء جعل هـذا الأسلوب وهذا الطراز معيارين لوزنه ،فان رآه مشابهاله أو مقاربا له سلم بصحته، وان وجده مخالفا حكم عليه بأنه مولد. أما الشيخ المؤلف فانه ينكر الشعر الجاهلى كله أو أكثره ،ويحكم بأن ماوصل الينا منسوبا الى الجاهليين انما قيل بعد الاسلام !فكأنه لم يصل اليك من هذا النوع ماتتأثر به نفسك فتجعله معيارا ، فكيف يمكنك أن ترد شعرا نسب الى الجاهلية لما فيه من سهولة ولين ؟ ومتى علمت أن الشعر الجاهـلى يجب أن يكون فيه صعوبة وصلابة؟ ان كان عندك أثارة من علم بهذا فقد جاءتك حتما من قـراءتك هذا الشعر الذى رواه الرواة ونسبوه الى الجاهلية ،ولكنك تحكم بأنه باطل مصنوع ! أفلا يجوز أن شـعر الجـاهلية الذى تزعم ضياعه أو ضياع

أكثره كان فيه سهولة ولين ؟ تأكد ياسيدى الأستاذ أن هذا النوع من الرد انما يليق بابن سلام وأبى الفرج ومن ماثلهما، ولا يجوز أن يجئ منك. على أنى لا أوافقك فيما تزعم لهذا الشعر من سهولة ولين، وان الذى يقول :

وان صرحت كحل وهبت عرية ... من الريح لم تترك من المال مرثدا
صبرت على وطء الموالى وخطبهم ... اذا ضن ذو القربى عليهم وأقمدا

انى أصارحك بأنى لم ألمس بيدى مازعمت من سهولة ولين.

يقول الأستاذ بعد رواية القطعة وماسبقها من خبر :«ونظن أن النظر فى هذه القصة وفى هذه القصيدة يكفى ليقتنع القارئ بأننا أمام شىء منتحل متكلف لاحظ له من صدق » !ولم يكفى ؟ لأن الشيخ أراد ! وارادته تصلح أن تكون مقدمة لأى قضية يريد تقريرها !

تعرض لمهلهل ففرض أن حكايته اخترعت بعد الاسلام لتثبت ربيعة لنفسها مجدا وشرفا وسيادة !.. من أنكريا أستاذ قديم ربيعة، وربيعة صنو مضر ولدها نزار. لكل منهما فى الجاهلية من الأحاديث الثابتة مايرفع من قدرها ؟ فليست ربيعة فى حاجة الى أن تتخيل وقائع لرجل تريد أن تتجمل به فتجعل خاتمته أسوأ الخواتيم من الذلة والمهانة فى أعين من كان ينزل بهم ويحتمى بجوارهم ! ان خيالك فى ذلك كخيالك فى أن كندة اخترعت حديث امرىء القيس لترفع من شأن نفسها وتشيد بثأرها عبد الرحمن ابن محمد بن الأشعث ! لو كان الحديث من كذاب وضاع يريدون مجداً وسيادة لكان هناك مايدعو الكاذبين الى ذكر خاتمة تعطى صاحبها وقومه شرفا ومجدا وسيادة .

يقول الأستاذ: « وانما تركت له قصة البسوس منه (مهلهل) صورة هي الى الأساطير أقرب منها الى شيء آخر ، ومن هنا قال ابن سلام ان العرب كانت ترى أن مهلهلا كان يتكثر ويدعى فى شعره أكثر مما يعمل ، والحق أن مهلهلا لم يتكثر ولم يدع شيئا. وانما تكثرت تغلب فى الاسلام ونحلته مالم يقل ».

رأى النقاد من العرب فى العصور الأولى شيئا من الغلو فى شعر مهلهل كقوله :

فلولا الريح أسمع من بحجر صليل البيض يقرع بالذكور

وهذا غلو زاد على الحد المعقول، لأن حجرا فى اليمامة، وأين هى من ديار تغلب حتى يصل الى سمع أهلها صليل البيض اذا قرعت بالسيوف؟ ولم يكن أمثال هذا الغلو معروفا عند العرب الأولين، فحكموا على الرجل بأنه كان يتكثر.. أما شيخنا فانه حكم بأن الحق أنه لم يتكثر ولم يدع ، وانما الذى تكثر وادعى هو تغلب فى الاسلام!! والام استند فى هذا النفى كله؟ لا الى شيء الا ارادته! وقد قلنافيما مضى انه يفهم أنهاتكفى مقدمة لاثبات كل قضية كلية كانت أو شخصية!

يقول : « انهم أحسوا أن فى شعره اضطرابا واختلاطا ولذلك سمى مهلهلا ، والهلهلة الاضطراب » ، ثم قال : « وليس من شك فى أن شعر مهلهل مضطرب فيه هلهلة واختلاط ، ولكننا نستطيع أن نجد هذه الهلهلة نفسها فى شعر امرىء القيس وعبيد وابن قميئة وكثير غيرهم من شعراء العصر الجاهلى ، فقد كانوا جميعا مهلهلا اذاً » ... ان ابن سلام الذى ينقل عنه المؤلف قال ان فى شعر مهلهل اضطرابا واختلافا ،فجعلها

شيخنا اختلاطا ! ومن المعروف أن هناك فرقا بين الاختلاف والاختلاط ، ونحن نسلم بأن فى شعر مهلهل اضطرابا واختلافا ونمنع أن يكون مثل ذلك فى شعر الشعراء الذين كانوا فى عهده أوبعده فى الجاهلية كامرئ القيس والنابغة وزهير والأعشى،وقد عرض شعرهم على النقاد من أهل الأدب الذين وزنوا الشعر وعرفوه فلم يشعروا فيه بما رأوه فى شعر مهلهل. ونحن قد تصفحنا شعر زهير والأعشى والنابغة فلم نجد فيه ذلك الاضطراب والاختلاف! فتسويتك بين الجميع فى هذا ادعاء يريد به الوصول الى ماأردت، وهو ادعاء يرده عليك من ذاق طعم الشعر! والذى أوقعك فى كل هذا الاضطراب أنك دخلت فى الموضوع وعندك عقيدة تريد أن تتصيد لها ماتظنه يقويها ، فهلهلت العلم !ولو فعلت كما يفعل النقاد، وكما أوصى ديكارت! ودخلت فى الموضوع دخول المحققين الذين يريدون الحقائق فقط وهم مجردون عن الهوى، لاستقام كلامك ولم تضطرب مقدماتك .

تقول بعد انشاد قصيدة مهلهل: « أليس يقع من نفسك موقع الدهش أن يستقيم وزن هذا الشعر وتطرد قافيته، وأن يلائم قواعد النحو وأساليب النظم ولايشذ فى شئ ولا يظهر عليه شئ من أعراض القدم أويدل على أن صاحبه هوأول من قصد القصيدوطول الشعر ؟ »... من أثبت ياأستاذ أن من أعراض القدم عدم استقامة الوزن وعدم اطراد القافية وعدم ملائمة قواعد النحو وأساليب النظم والشذوذ ؟ هل عندك شئ من الشعر القديم فيه هذه الأعراض حتى يدهش الناس اذارأوا شعر مهلهل خاليامنها ؟ ان كان كذلك فهلم به لنكون معك فى دهشتك!

والا فمثل هذا الكلام فضول من القول لايؤدى الى نتيجة.

يصف شعر جليلة بأن فيه « سهولة ولينا وابتذالا » .. نحن معه بأن فيه سهولة ولينا ، أما الابتذال فننكره ، والقطعة من بارع الشعر وجيده ، والتى تقوله امرأة حزينة فقدت زوجها بيد أخيها ، فهى تندب زوجها وتخشى على حياة أخيها فهى تقول :

ياقتيلا قوض الدهر به سقف بيتى جميعا من عل
هدم البيت الذى استحدثته وانثني في هدم بيتى الأول

وماذا ينتظره الأستاذ من امرأة حزينة ، وهى من ربيعة التى يصف الأستاذ شعرها دائما بأن فيه سهولة ولينا ؟ قلما أتأثر من قراءة شعر شاعر يعبر عما فى نفسه بقدر ما أتأثر اذا قرأت هذه القطعة ، وموقفى فى ذلك موقف الأستاذ أمام شعر طرفة ، وسنذكر حديثه بعد.

تعرض فى الفصل الرابع الى ذكر عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة : نفى بتاتا أن تكون قصيدة عمرو بن كلثوم جاهلية ، وقد بينا من قبل أن ليس عند الأستاذ طراز خاص للشعر الجاهلى حتى يمكنه أن ينفى عنه ماخالف ذلك الطراز ...انك ترى فى هذه القصيدة « لفظا سهلا لايخلو من جزالة ، ومعانى حسانا ، وفخرا لابأس به» ! فهل هذا مما يقيم حجتك على أن القصيدة ليست لعمرو بن كلثوم ؟.. ومن طريف ملاحظاته أنه أنشد هذا البيت :

ألا لايجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

قال : « ان هذا البيت يمثل اباء الضيم البدوى ، ولكنى أسرع فاقول انه لايمثل سلامة الطبع البدوى وأعراضه من تكرار الحروف الى هذا

الحد الممل ، فقد كثرت هذه الجيمات والهاءات واللامات ،واشتد هذا الجهل حتى مل » !أليس من الطريف أن يأتى هذا منك وأنت أميل الكتاب الى مثل هذا التكرار ؟ ان تكرار الحروف ليس فى كل تعبير مملا ، بل يكون أحيانا سائغا ، واسمع « هأنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء »، هل تشعر بملل من تكرار الحروف فى هذه الآية ؟

يرى من المقارنة بين قصيدتى عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة « فرقا عظيما فى جودة اللفظ وقوه المتن وشده الاسر » ، كأنه يرى كل شاعرين وجدا فى عصر واحد يجب أن يتساويا فى ذلك،فاذا شعرت الأذن بفرق كانت النتيجة أن القصيدتين منتحلتان.مع أنه يرد على نفسه عقب ذلك بقوله: « وكل مافى الأمر أن الذين كانوا ينتحلون كانوا كالشعراء أنفسهم يختلفون قوة وضعفا وشدة ولينا » ، واذا كان الشعراء يختلفون كذلك فهم عجبك ،وفيم استنكارك أن يظهر الفرق العظيم بين عمرو والحارث ؟ ان فى عصرك الذى نحن فيه شعراء ، فهل تستطيع أن تقول انهم جميعا متساوون فى جودة اللفظ وقوة المتن وشدة الأسر؟ان عمر بن أبى ربيعة والعجاج كانا فى عصر واحد، فهل كانا جميعا متساويين فيما تقول ؟ انالنقرأ القصيدة لعمر فلا يغبى علينا شئ من معانى ألفاظها وجملها ، ونقرأ الأرجوزة للعجاج فلا نكاد نفهم منها شيئا، وقد كانا بعد ظهور الاسلام الذى زعمت أنه أصدر مرسوما بتوحيد اللغة . ولا نذهب بك بعيدا ، فهذا شاعر مصر الأكبر يقول القصيدة فتتلقفها عنه الأفواه ويتغنى بها المغنون لما كسيته من السهولة واللين ، ويقول نفسه القصيدة

أحيانا فيحتاج الى شرح كثير من ألفاظها وتختلف الخاصة فى فهم معانيها، والرجل واحد لم يتغير، فهل سينكب بعد مرور جيل أو جيلين بمن يأتى فيقول :أنا أجزم بأن هذا الشعر ليس لشاعر واحد ؟ أو يقول : انه كله منتحل ؟ لالا !فليبشر شوقى بخلود شعره منسوبا اليه، لأن اثبات القضايا يحتاج الى غير ماتعسفه الشيخ من المقدمات .

تعرض فى الفصل الخامس الى طرفة والمتلمس :

كان الأستاذ يرد الشعر فيما سبق بما يزعمه فيه من سهولة ولين ،فلما عرض له طرفة رأى فيه« متانة اللفظ وغرابته أحيانا ، حتى لتقرأ الأبيات المتصلة فلا تفهم منها شيئا دون أن تستعين بالمعاجم » ! أفتدرى أيها القارئ أنه جعل المتانة والغرابة هنا سببا للرد ، كما جعل السهولة واللين فيما مضى ؟ ذلك أنه زعم أن شعره أشبه بشعر المضريين منه بالربعيين، لأن هؤلاء يتفقون جميعا فى هذه السهولة التى تبلغ الاسفاف أحيانا » ، مع أنه منذ قريب ردّ شعر عمرو بن كلثوم لما فيه من سهولة ، ورد شعر جليلة لما فيه من سهولة، وكلاهما من ربيعة !

تساءل كيف شذ طرفة عن شعراء ربيعة جميعا ، فقوى متنه واشتد أسره وآثر من الاغراب مالم يؤثر أصحابه ، ودنا شعره من شعر المضريين.. يسأل هذا السؤال مع اعترافه أن الحرث بن حلزة خارج عن هذه الدائرة ، وهو أقدم من طرفة ، واذا كان طرفة مسبوقا بهذا الطراز ، فكيف يقال انه شذ ؟! على أنا لانتفق مع الأستاذ على أن للربعيين طرازا خاصا بهم فى شعرهم ، وهو السهولة واللين ، وللمضريين طرازا آخر هو الشدة والصعوبة . والذى وصل اليه علمنا أنه يوجد فى شعر

كل من الفريقين السهل والصعب واللين والشديد ، وانا مستعدون لاثبات ذلك مما بين أيدينا من شعر الفريقين . أما الاستاذ فما سنده فى التفرقة اذا لم يعرف بصحة شئ مما روى من شعر الفريقين ربيعة ومضر ؟ ... روى أبيات طرفة فى وصف ناقته وبدون أى تعليل ، قال : « وهو يمضى على هذا النحو فى وصف ناقته . فيضطرنا الى أن نفكر فيما قلناه من قبل من أن أكثر هذه الأوصاف أقرب الى أن يكون من صنعة العلماء باللغة منه الى أى شئ آخر » ، اما ما يضطره الى مثل هذا التفكير فانه مما لا يجب ذكره !

ثم روى أبياتا أخرى وصفها « بأن فيها لينا ، ولكن فى غير ضعف ، وشدة ولكن فى غير عنف ، وكلاما لا هو بالغريب الذى لا يفهم ، ولا هو بالسوقى المبتذل ، ولا هو بالألفاظ قد رصفت رصفا دون أن تدل على شئ »، وبعد هذا الوصف الذى أضاع عليه كل أسباب الرد ، قال : « وامض فى قراءة القصيدة ، فستظهر لك شخصية قوية ، ومذهب فى الحياة واضح جلى ، مذهب اللهو واللذة يعمد اليها من لا يؤمن بشئ بعد الموت ، ولا يطمع فى الحياة الا فيما تنتج له من نعيم بريئ من الاثم والعار ، على ما كان يفهمها عليه هؤلاء الناس » ، وبعد رواية الأبيات قال : « فى هذا الشعر شخصية بارزة قوية لا يستطيع من يلمحها أن يزعم أنها متكلفة أو منتحلة أو مستعارة ، وهذه الشخصية ظاهرة البداوة واضحة الالحاد بينة الحزن واليأس والميل الى الاباحة فى قصد واعتدال . هذه الشخصية تمثل رجلا فكر والتمس الخير والهدى فلم يصل الى شئ ، وهو صادق فى يأسه ، صادق فى حزنه ، صادق فى ميله الى

هذه اللذات التى يؤثرها » ... الى هنا كان يظن أن الأستاذ يسلم نسبة هذا الشعر لطرفة ، لأن كل أسباب الرد قد انقطعت ، وقد اعترف بأنه لايمكن أن يقال انها متكلفة أو مستعارة ، وقد سلم فيما مضى نسبة قصيدتين الى علقمة بأقل من هذا ، ولكنى أؤكد للقارئ أنه بعد هذا كله عز عليه أن يعترف ببقاء شعر لرجل ذكر أنه عاش فى الجاهلية ولم يدرك الاسلام ،بل قال فى حال لا أدرى بم أصفه: «ولست أدرى أن هذاالشعر قد قاله طرفة أم قاله رجل آخر ؟ وليس يعنينى أن يكون طرفة قائل هذا الشعر ، بل ليس يعنينى أن أعرف اسم صاحب هذا الشعر ،وانما الذى يعنينى هو أن هذا الشعر صحيح لاتكلف فيه ولا انتحال » ! ! وما معنى صحة الشعر ؟ أصحة معناه أم صحة نسبته الى من نسب اليه ؟ .. انه لايريد الاعتراف بهذا ، بل يقول: « فأما صاحب القصيدة فيقول الرواة انه طرفة ، ولست أدرى أهو طرفة أم غيره ، بل لست أدرى أجاهلى هو أم اسلامى ، وكل ما أعرفه هو أنه شاعر بدوى ملحد شاك » ! ! واذا لم يكن طرفة هو القائل ، فان ذلك الشاعر الذى يتخيله قد قال الشعر ونسبه الى طرفة ، فهو اذا منتحل مصنوع ! وقد قلت فيما مضى ان ذلك مما لايستطاع قوله ! ولعلك تعتذر عن هذا بأنه ربما قاله شاعر غير طرفة، فأخذته الرواة ونسبته الى طرفة ... وهو احتمال لايرضى عنه مفكر ،لأن الرواى حظه الرواية فليس من داع لأن يتعمد نسبة شعر شاعر الى آخر . على أن الشعر اذا كان صحيحا لاتكلف فيه واتفقت الرواة على نسبته الى طرفة ، فما معنى الشك بعد ذلك ؟ انك تخشى على نظرياتك التى فرضتها فى صدر كتابك أن تنقض اذا اعترفت أن جاهليا من ربيعة

قال شعرا لايفترق فى لغتــه عن لغة مضر، وقد فرضت فيها أن العرب العدنانيين كانوا مختلفين لغة ولهجــة ! لكن التحقيق العلمى كان يقضى عليك اذا فرضت فرضا ورأيت ولو جزئية واحدة تؤثر فيه أنك تتوقف فى الجزم بهــذا الفرض، لأن القضية الكلية الموجبة تنقضها الجزئيــة السالبة ... ولكنك أبيت الا استمساكا بنظريتك مــع وجود الجزئيات الكثيرة التى لم يمكنك تأويلها، وكان موقفك فيها عجبا كموقفك فى شعر طرفة !!

ان الأدب العربى فى حاجة كبرى الى تنظيم فى طرق تدريسه، بل هو فى حاجة الى ترتيبه وجعله سائغا لواردیه ... أفلا ترى أن العمل لذلك أجدى عليك وعلى المشتغلين به من هذا الموضوع الذى تعسفته تعسفا ؟ وكان عليــك حسبما أرى أنا أن تزيده بحثا، حتى لاتكثر عــثراتك وتضطرب عباراتك ! .. وانى لأحب أن الله لك التوفيق حتى تأخذ فيما يجدى، والسلام ؟

7181ع

10

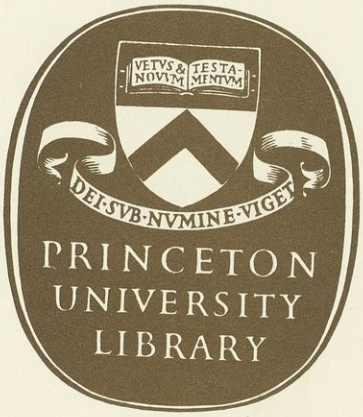
VETVS & NOVVM TESTA-MENTVM
DEI·SVB·NVMINE·VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY

WERT
BOOKBINDING
Grantville, Pa.
JAN-MAR 1997
We're Quality Bound